كتاب
اللطف في الوعظ

لابن الجوزي رحمه الله
تعالى آمين ثم آمين

صححه وضبطه جماعة من العلماء
باشراف الناشر

الطبعة الاولى

١٤٠٥ هـ - ١٩٨٤ م

بيروت - لبنان

يطلب من : دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان

هاتف : ٨٠١٣٣٢ - ٨٠٥٦٠٤ - ٨٠٠٨٤٢

ص.ب ٩٤٢٤-١١ - تلكس : NASHER 41245 Le

مقدمة المؤلف

قال الشيخ الامام العالم الحافظ ، إمام وقته ، وفريد عصره ، وعلاّمة دهره ، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله على ما يُوليه حمداً يُرضيه ، وصلى الله على من اجتمعت كل المعالم فيه ، وقُرِنَ اسمه باسم الحق عند الذكر ويكفيه ، وعلى آله وأصحابه وتابعيه . هذا كتاب رقّت عباراته ، ودقّت اشاراته ، نثرته عند الاملاء نثراً من فنون ، فهو نصيب أكف لا تلتقط الدون ، جعلته طرازاً على ثوب الوعظ ، وفَصّاً لخاتم اللفظ ، يعمل في القلب قبل السمع ، وإلى الله الرغبة في النفع .

الفصل الأول

وحدانية الله سبحانه وتعالى

في قوله تعالى : ﴿ هُوَ الأَوَّلُ والآخِرُ والظَّاهِرُ والبَاطِنُ ﴾ (١) لا بصفة الأول علم له مبدأ ، ولا لآخر صار له منتهىً ، ولا من الظاهر فُهِمَ له شَبَح ، ولا من الباطن تعطل له وصف .

خَرستْ في حضرة القدس صولة لِمْ ، وكُفّت لهيبة الحقّ كَفُّ كيف ، وعُشيت لأنوار العزة عين عينِ الفكرة ، فأقدام الطلب واقفة على حمَى التسليم ، جلّ عن أشباه وأمثال ، وتقدّس عن أن تضرب له الأمثال ، وإنما يقع الاشتباه والاشكال في حق مَن له أنداد وأشكال .

المشبِّه متلوث بغرس التجسيم ، والمعطِّل نجس بدم الجحود ، ونصيب المحق من بين فرث ودم لبن خالص ، وهو المتنزه لا يقال لِمَ لفعل ، ولا متى لكونه ، ولا فيمَ لذاته ، ولا كيف لوصفه ، ليس في صفاته أينَ ولا مِمّ ، لا تدخل في أحديته مِنْ مَنْ طالع مرآة صمديته دلته صفاتها على التنزيه . وعلِم أنه لا ينطبع فيها شبحَ الشريك ، ولا خيال التشبيه ، تفكّروا في آلاء الله ، ولا تتفكروا في ذات الله فتهلكوا. إذا استقبل الرِّمدُ الريح ، فقد تعرض لزيادة الرَّمد ، جاء البعوض إلى سليمان عليه السلام يشكو من الريح ، فاستحضر سليمان الريح فذهب البعوض ، فقال سليمان : إلى أين ؟ فقال : لو كان لي قوة الثبوت معها ما شكوت منها .

---

(١) سورة الحديد ، الآية : ٣ .

الفصل الثاني

في ذكر نبينا محمد ﷺ

لما رأى نبينا محمد ﷺ تخليط القوم في دعوى الشرك فرّ في بداية الهرب، فتحرى غار حرّاء للفراغ فراغَ إليه، فجاء مزاحم: اقرأ يا راهب الصمت، تكلّم لسان العجز البشري. « لست بقارىء »، أنا بالأمس في حجر حليمة، ودخلت لموت أبي في كفالة أبي طالب، فحُمّ لما حُمّ، فزمزم باللطف زملوني، فعاد طيفُ اللطيف يبعث الراقد، ﴿ يا أيُّها المزّمّلُ ﴾ [1]. قم يا أطيب ثماركن، يا محمولاً عليه ثقل فل، بأمره خُلع عليه خلعته ﴿ قُمْ فأنْذِرْ ﴾ [2]. ومن تحركت لتعظيمه السواكن، فحنّ إليه الجذع، وكلّمه الذئب، وسبّح في كفه الحصا، وتزلزل له الجبل، كل كيّ عن شوقه بلسانه عجب القوم من علو منزلته، فقالوا بألسنة الحسد: لولا أنزل هذا القرآن، والقدر يقول: ما هذا التعجب عن نخلة بَسَقَتْ والأصل كانوا به، ألم نخلقكم من ماء مهين، مرض القوم داء الحسد فرأوه بغير عينيه، فقالوا مجنون، يا محمد! هذا نقش برقانهم لا لون وجهك، يا جُملة الجمال، يا كلّ الكمال، أنت واسطة العِقد، وزينة الدهر يزيد على الأنبياء زيادة الشمس على البدر والبحر على القطر، والسماء على الأرض، أنت صدرهم وبدرهم، وعليك يدور أمرهم، أنت قطب فلكهم، وواسطة قلادتهم، ونقش فصّهم، وبيت قصيدهم، شمس ضحاها، هلال ليلتها، درُّ مقاصيرها، زبرجدها الخلائف أشخاص والأنبياء قلوب. ونبينا عليه السلام سرّهم لما أخذ في سير أُسري، فنقل إلى المسجد الأقصى. خرج إليه عُبّاد الأنبياء من صوامعهم، فاقتدوا بصلاة راهب الوجود، لو كان موسى وعيسى حيين. امِطْها عنك يا عمراً مع الشمس سراج، بعثت بالحنيفية السمحة، كانت شرائع الأنبياء كرمضان الصوم، وشرع نبينا يوم العيد، عرضت عليه الجنة والنار حتى عرف الطبيب العقاقير قبل تركيب

---

(١) سورة المزمل، الآية: ١.

(٢) سورة المدثر، الآية: ٢.

الأدوية ، فلِ عز وبسيف ، أتجعل فيها ليلة المعراج ، ظنت الملائكة أن الآيات تختص بالسماء ، فإذا آية الأرض قد علت ، ليس العجب من ارتفاع صعودهم لأنهم ذووا أجنحة ، إنما العجب من ارتفاع جسيم طبقة الهبوط بلا جناح جسداني كان جبريل دليل الفلاح ، فلما وصل إلى مفازة ليس فيها عَلَمٌ يعرفه عَلمَ ابن أجود أن الصدق أجود ، فقال : ها أنت وربك ، وقع في بادية القرب فأوجبت هيبة التعظيم ، إن خرس لسان الطبع فقال : لا أحصي ثناء عليك ، كادت الهيبة تُلْهِبه لولا أنه تدورك برش ماء السلام عليك ، فإذا قامت القيامة ، فموسى صاحبه ، وعيسى حاجبه ، والخليل أمير جنده ، وآدم ينادي بلسان حاله : ياوُلد صورتي ، ياوالد معناي .

الفصل الثالث

في ذكر آدم عليه السلام

إيّاك والذنوب ، فإنها أذلت أباك بعد عزّ ، اسْجدوا ،وأخرجته من إقطاع اسْكُن مذ سبني الهوى ، آدم هَوى دام حزن ، فخرج أولاده العقلاء محزونين ، وأولاده السبايا أذلة ، أعظم الظلمة ما تقدمها ضوء ، وأصعب الهجر ما سبقه وصل ، وأشد عذاب المحب تذكاره وقت القرب ، كان حين أخارجه لا تمشي قدمه ، والعجب كيف خَطَا وتلَفّتت عيني فمذ خفيت عني الطلول تلَفّت القلب ، واعَجَباً لجبريل بالأمس يسجد له ، واليوم يجر بناصيته ، والمدنف يقول : ارفق بي يا سائق البكَرات ، استبق فضلتها على الرويد ، فظهر التكر معقود ، ما نَضَب ماء عينه مذ نزل مما نزل لم يزل ماؤها يجري على خد الأسى لأيام الوصال ، واللسان يقول : ياويلتاه ، والقلب يُنادي : ياهفاه مَنْ معيد أيام جَمْعٍ على ما كان منها ، وأين أيام جمع طالبٌ بالعراق ينشد هيهات زماناً أضله بالجزع ، كم قِصَّة غُصَّة بعثها مع بريد السر لا يدري بها سوى القلب ، مكنونها التأسف ، وضميرها التلهف .

ألا يا نسيم الريح من أرض بابل   تحمّل إلى أهل العراق سلامي

وإني لأهوى أن أكون بأرضهم على أنني منها استفدت غرامي

أخَذَتْ صعداء أنفاس آدم من ذكر وعصى تحرقه لولا أنه تدارك الحريق بمياه فتاب عليه، حمِّلوا ريح الصبا نَشْركم قبل أن تحمل شيحاً وثماماً ، كان كلما عاين الملائكة تنزل من السماء تذكر المرتع في المربع فتأخذ العين في إعانة الحزين .

رأى بارقاً من أرض نجد فراعه ، فبات يَسِحُّ الدمع وجداً على وجد. فياشجرات القاع من بطن وجْرة سقاك هزيم الودق مرتجس الرعد . كان عند رؤية الأملاك يذكر أقطاعه الأملاك ، فيكاد بأساً ، فيجعل الرجاء بأساً ، ثم قام بعد مراكب المنى يمشي إلى أرض منى ، فلولا تلقّى الكلمات مات ، هل الأعصر اللائي مضينَ يعُدنَ لي كما كنّ لي ،أم لا سبيل إلى الرد ؟ واعجباً لقلق آدم بلا معين على الحزن هو أمُّ الأرض لا تفهم ما يقول ، وملائكة السماء عندها بقايا ، أتجعل فيها فهو في كربة بلا رحيم ، لا راحم من آل ليلى ، فأشتكي غرامي له حتى يكلّ لساني بكاء آدم لفراق الجنة لا كبكاء غيره ، وكانت بالعراق لنا ليال ، سرقناهن من ديب الزمان . ما كان هذا القلق لنفس الدار بل لأجل رب الدار :

صحبي مضوا فمدامعي مُنْهَلّةٌ في أثرِ صحبي
ما فوّقَ الهجران سهماً فانثنى عن قصد قلبي
كلا ولا نادى الجوى إلا وكنت أنا الملبي
ولقد وقفت على مِنىً لولا المُنى لقضيت نحبي

قال وهب بن منبه رضي الله عنه : سجد آدم عليه السلام على جبل الهند مائة عام يبكي حتى جرت دموعه في وادي سرنديب ، فنبت من دموعه الدارصيني والقرنفل ، وجُعِل طيور ذلك الوادي الطواويس ، ثم جاءه جبريل عليه السلام فقال : ارفع رأسك فقد غفر لك ، فرفع رأسه ثم أتى البيت فطاف أسبوعاً فما أتمه حتى خاض في دموعه :

دموع عيني مذ جد بَيْنَهُم مثل الدوالي وهي الدوالي

كان آدم يعقوب البلى جرى القضاء بزلته فما ذنب اللقمة ، ولكن ظفرتم بالمحبين ، فارحموا قَدَح أُريد إنكساره فَسُلِّم إلى مرتعش ، لو لم تذنبوا واعجباً كان يبكي للدار مرة وللجار ألفاً ، والفراق يقلقل والبعاد يزلزل ، وأنّي لمشتاق إلى طيب وصلكم ، كما اشتاق نحو الدار من طال لَفْتُهُ :

سلامٌ على تلك العهود وأهلها سلام مشُوق ذاق ما كنت ذقته
سأبكي الدما شوقاً إلى ساكن الحما فأفنى به كنز اصطبار ذخرته
ولم أبكِ بعد الدار عني وإنما بكيت لصبر كان لي فعدمته

الفصل الرابع

في صفة الربيع

إذا تأيمت الأرض من زوج القطر وجدت لفقده مَسّ الجدب أخذت في ثياب ، وترى الأرض هامدة ، فأذاقوا فقر القفر القوامدّ أكُفّ الطلب . يستعطي زكاة السحاب ، فساق الصانع إليها بعلاً يسقي بعلا ، فثارت الغياث مثيرة ، وجاء الغيث بلا مثيرة فسقناه إلى بلد ميت ، وتأثير صناعة المُعَلِّم في البليد أعجب ، فلبس الجوّ مِطْرفه الأدكن ، وأقبلت خيّالة القطر ، شاهرة سيوف البرق ، فأخذ فراش يرش جيش النسيم ، فباحت الريح بمكنون المطر ، فاستعار السحاب جفون العشاق وأكُفّ الأجواد فامتلأت الأودية أنهاراً .

كلما مسّتها يد النسيم حكى سلسالها سلاسل الفضة
فالشمس تُسفر وتنتقب والغمام يرش وينسكب

فانعقد بعقد الزوجين ، عقد حبّ الحُبِّ ، فلما وقعت شمس الشتاء في الطفل نشأ أطفال الزرع ، فارتبع الربيع وسط بلاد الزمان ، فأعار الأرض أثواب الصِّبا ، وروّح كربها بنسيم الصَّبا ، فانتبهت عيون النور من سنة الكرى ، ونهضت عرائس النبات تَرْفلُ في أنواع الحُلَل ، فكأنّ عين النرجس عَيْن ، وورقه وَرِق ، فالشقائق تحكي لون الخجل ،

والبهار يصفُ حال الوَجِل،والبنفسج كأثار العض ّ في الغَضّ ، والليونوفر يـُغفي وينتبه ، والأغصان تعتنف وتفترق ، والأراييج قد ثبت أسرارها إلى النسيم ، فنَمّ فاجتمعت في عُرس التواصل فنون القيان ، فعلا كل ذي فن على فَنَن ، فتطارحت الأطيار مناظرات السّجوع ، فأعرب كلٌّ بلغته عن شوقه : فالحمام يهدر طرباً ، والبلبل يخطب سبباً ، والقمريُّ يـُرجِّع تعجبا ، والمكا يـُغرِّد ، والهدهد والأغصان تتمايل كلها تشكي للذي بيده عقدة النكاح وتتطاول ، فحينئذ تجد خياشيم المشوق ضالة وجده :

لي بذات البـــان أشجـــان حبذا من أجلهـــا البَـــانُ
حبذا مـــن بات يوقظـــه من نسيم الفجر ريعـــانُ
حبّذا وُرُقُ الحمـــام إذا ريحتهـــا منـــه أغصـــانُ
داعيـــات بالهديل لهـــا فيـــه أسجـــاع وألحـــانُ
أعجمياتٌ إذا نَطَقَتْ ليْس إلاَّ لشوْقٍ تِبيْـــانُ
كلما غنتني هزجـــاً هاجني للذكر أحـــزانُ
مالَ بي ميلَ الغصون بها طربي فالكل نَشوانُ
يا حمامَ البان يجمعنا وجدنا إذ نحن جيرانُ
بـُحْنَ بالشكوى إليَّ فما بين أهل الشـــوقِ كتمـــانُ
يتشاكى الواجدون جوىً واحداً والوجد ألوانُ
أنا مخلوس القرين وآنستَن أزواج وأقـــرانُ
وبعيد الدار عن وطني ولكنّ البانَ أوطـــانُ
آه من داء أُكاتمه والهوى سرٌّ وإعـــلانُ
لا تزدني يا عذولي جـــوىً أنا بالأشواق سكرانُ

الفصل الخامس

يذكر فيه إشارة من حال سلمان الفارسي

سابقة الأزل قضت لقوم بدليل سبقت ، وعلى قوم بدليل غلبت ، فوا أسفار أين المفر ، توفيق سبقت ،نوّر قلب الجن ، فقالوا : ﴿ إنّا سَمِعْنا قُرْآناً عَجَباً ﴾ [1] . وخذلان غلبت أعمى بصائر قريش فقالوا : ﴿ أساطيرُ الأوّلينَ ﴾ [2] ، أهل الشام في جانب البعد ، وأهل اليمين في مهب شمال القرب ، ما نفعت عبادة إبليس ، ولا ضرّ عِنادُ السحرة . وحّدَ قُسٌ وما رأى الرسول ، وكفر ابن أُبيّ ، وقد صلى معه مع الضب ريٌّ يكفيه ولا ماء ، والسمكة غائصة في الماء ولاريٌ.

دخل الرسول عليه السلام إلى بيت يهودي يعوده فقال له : « أسلم تسلم » فنظر المريض إلى أبيه ، فقال له : أجب أبا القاسم فأسلم .

كان في ذلك البيت غريباً من نصيب سلمان منا ، فصاحت ألسنة المخالفين : ما لمحمد ولنا ، ولسان الحال يقول :

عريضنا عندكم كيف انصرافي   ولي في داركمُ شغــلُ

المناسبة تؤلف بين الأشخاص ، ما احتمل موسى مرارة الغربة في دار فرعون ، وإن كان في آسية ما يُسلّي غير أن حق الأم حق فضُرب على فيه فدام ، وحرّمنا فدامَ إلى أن أتمته الأمّ فصوّب عود العَود عند اجتماع الشمل .

سلام عليكمُ كيف حالكمو بعدي   وهل عندكم في وحشة الجبين ماعندي

سبق القلم بنبوة موسى وإيمان آسية فسبق تابوته إلى بيتها ، فيه طفل ينفرد عن أمّ إلى امرأة خالته عن زوجٍ ، قرينان مرتعنا واحد لما قضيت في القدم سلامة سلمان حملته صباَ الصِّبا نحو الثديين كان أبوه على اعتقاد

(١) سورة الجن ، الآية : ١ .
(٢) سورة الأنفال ، جزء من الآية ٣١ .

المجوس ففرّح به دليل التوفيق إلى دين النصارى ، فأقبل يناظر أباه في دين قد أباه ، فلم يكن لأبيه جواب إلا ألقيه ، فهذا جواب المرذول قديم من يوم أنا أحيي وأميت ، ثم نكسوا قالوا : أحرقوه ، فنزل في البادية ضيفاً ، ولنبلونهم ، ولولا مكابدة البــلاء ما فليت ، ربّ أشعث أغبر لو أقسم فسمع أن الركب على نية السفر فسرق نفسه من حرز أبيــه ولا قطع ، فركب راحلة العزم يرجو إدراك مطلب الغنى ، وعام في بحر البحث ليقع على درة الوجود ، فصاح به اليهودي : إلى أين ؟ فقال : إني ذاهب إلى ربي ، وقّف نفسه على خدمة الاولاء وقوف الأذلاء ، فلما أحسّ الرهبان بانقراض دولتهم زوّدوه في سفر الطلب علْم الأعلام على علامات نبينا ﷺ وقالوا :

قد آنَ زمانه وأظلّ   فاحذر أن تضلّ

فإنه يخرج بأرض العرب ، ثم يهاجر إلى أرض بين حرّتيْن ، فلو رأيته قد فلا الفلا والدليل شوقه .

وحكى الموصلي خِلا يُزعجه توقُه :

وأبغضت فيك النخل والنخل يانــع   وأعجبني من حبك الطّلح والضالُ
وأهوى بحرّاك السماوة والغَضـــا   ولو أن صِنْفيْه وشاةٌ وعذّالُ

دخل مع رفقة لم يرفقوا به ﴿ وشَروْه بثَمَنٍ بَخْسٍ ﴾ (١) فاشتراه يهودي بالمدينة ، فانجبر انكسار رقه بانعام سلمان منا وتوقد .

حرشوفة بروية الحرتين ، وما علم المنزل بوجد النازل :

أيدري الربــع أم دم أراقــا   وأي قلوب هــذا الركب شاقا
لنا ولأهلــه أبــداً قلـــوب   تلاقى في جسـوم ما تلاقـــا

فبينا هو يكابد ساعات الانتظار جاء البشير بقدوم الرسول ، وسلمان في رأس نخلة ، فكاد القلق يُلقهِ لولا أن الحزم أمسكه كما جرى يوم

---

(١) سورة يوسف ، الآية : ٢٠ .

إن كادت لتبدي به ، ثم عجل النزول ليلقى ركب البشارة ، وأيّ ثبات بقى ليعقوب في حال إنّي لأجد خليليّ .

من نجدٍ قفـا بي على الرُّبـــا فقد هبّ من تلك الرسوم نسيمُ

فصاح به المالك : مَالكَ وهذا ؟ انصرف إلى شغلك . كيف انصرافي ولي في داركم شغل ، ثم أخذ يضربه ، فأخذ لسان حال المشوق يترنم لو سمع الأطروش :

خليليّ لا والله ما أنـا منكما إذا عَلَمٌ من آل ليلى بدالِيـا

فما لقي الرسول عارض نسخة الرهبان بكنان الأصل ، فوافق ، فوافق.

الفصل السادس

في وصف الليـــل

سفر الليل لا يطيقه إلا مُضمّر المجاعة تجتمع جنود الكسل فتتشبث بذيل التواني ، فتُزيّن حبّ النوم ، وتُزخرف طيب الفِراش ، وتخوف بَرد الماء ، فإذا ثارت شعلة من نار الحزم أضاءت بها طريق القصد ، فسمعت أُذُنُ اليقين هاتف هل من سائل ، فقمت أفرش خدي في الطريق له ، ذلاً وأسحب أجفاني على الأثر ، نفس المحب في الليل على آخر نفَس ، وفي المتعبدين قوة وهم يستغفرون . صُراخ الأطفال ، غير بكاء الرجال . سهر الليل هودج الأحباب ، تيقظ الأسحار ، وآثار الأخطار ، فاو رأيتهم وقد لاحت الجوزاء وانحدر النِّسر . قد افترشوا بساط قيس ، وباتوا بليل النابغة .

إن ناموا توسّدوا درع الهمم ، وإن قاموا فعلى أقدام القلق ، كأنّ النوم حلف على جفا أجفانهم ، هذا رضاك نفى نومي فأرّقني

فكيف يا أمي إن كنت غضبانـاً ما زالوا عـلى مطايا الأقـدام
إلى أن نمّ النسـيم بالسحـر وقام الصارخ ينعـي الظـلام

فلما تمخّض الدّجى بالسحر ، تساندوا إلى رواحل الاستغفار . شكونا إلى أحبابنا طول ليلنا ، فقالوا لنا ما أقصر الليل عندنا ، رياح الأسحار أقوات الأرواح ، رقت فراقت حرّ الوجد ، وبلّغت رسائل الحب ، ألا يا صبا نجدٍ ، متى هجت من نجد مكروب الوجد يرتاح إلى النسيم ، وإن قلقل الواجد .

بـــين شمـــال وصَبَا حَنّ مشـــوق وصَبـــا
فلـــم تـــزده نفحا ت الشوق إلا وصَبـــا

عبادة النسيم لا يفهمها إلا المشتاق ، وحديث البروق لا يروق إلا للعشاق ، ومرنّح فَطِنَ النسيم بوجوده ، فروى له خبر العُذَيْب مُعَرَّضا ، خلو بالحبيب في دار المناجاة فكساهم ثياب المواصلة ، وضمّخهم بطيب المعاملة ، وغالية السحر غالية ، يصبحون وعليهم سيما القرب ، تفوح أرواح نجد من ثيابهم ، فتأسّف يا جيفةَ النوم ، وابكِ يا عُريان الغفلة .

أتدري كيف مرّ عليهم الليل ، الله عالم بما جرى للقوم . أيعلم خالٍ ما جرى لِلْمُتَيمَّم ، دخلتْ رفقة تتجافى قبل السحر ، ومطرودٍ النومُ في حبس الرقاد . فما فكّ عنه السجّانُ القيد حتى استقر بالقومِ المنزل ، فقام يتلمح الآثار بباب الكوفة ، والقوم قد شرعوا في الاحرام.

مَنْ يطّلِعْ شَرَفاً فيُعْلمني هـــل روّض الرعيان بالابلِ
أم قعقعت عمـــد الخيام أمْ ارتفعت قبابهم عـــلى البزلِ
أم غـــرّدَ الحـــادي بقافيـــةٍ منها غرابُ البـــين يستْملي

كان حسّان بن أبي سنان يخادع امرأته حتى تنام ، ثم يخرج عن الفراش إلى الصلاة .

جرى حبه مجرى دمي في مفاصلي فأصبح لي عن كل شغل به شغل
كأن سُهادَ الليل يعشق مقلتي فبينهما في كل هجر لنا وصل

كانت أم الربيع بن خثيم إذا رأت تقلقه بالليل تقول له : يا بني ! لعلك قتلت قتيلاً ؟ فيقول : نعم ! قتلت نفسي .

وقالت أم عمر بن المنكدر : يا بني ! أشتهي أن أراك نائماً ، فقال: يا أمّاه ! جَنّ عليه الليل وهو يخاف البيَات ، حقّ له أن لا ينام ، يا أمّاه ! إن الليل لَيَرِدُ عليّ فيهولني فينقضي عني وما قضيتُ منه أدبي .

ذُقِ الهوى وإن استطعتَ الملام لُمِ

قيل لبعض العباد : ارفق بنفسك .

فقال : الرفق أطلب .

كان أمية الشامي يبكي في المسجد وينتحب حتى يعلو صوته فأرسل إليه الأمير : إنك تفسد على المصلين صلاتهم بكثرة بكائك ، وارتفاع صوتك ، فلو أمسكت . فبكى .

وقال : إن حزن القيمة أورثني دموعاً غزاراً فأنا أستريح إلى ذَرْيها أحياناً :

اللوّم فيك ينصحوني والنصح خيانة اللوائم
المقعد والمقيم عندي ما دمت على الصدود دائم
مالي أجدُ الحمام أنّى ناحت بأيكها الحمائم
كم صح على السلوّ عزمي والحب يحلل العزائم

الفصل السابع

في توبة العبد قبل أن يدركه الأجل

يا مؤخراً توبته بمطل التسويف ، لأيّ يوم أجّلت . كنت تقول إذا شبت تبت ، فهذي شهور الصيف عناقد انقضت ، لو كان السيف

عزمك جوهرة ، لقيلك موت الهوى تحت ضبته . كلّ يوم تضع قاعدة الأنابة ولكن على شفا جُرف . كلما صدقت لك في التوبة رغبة حملت عليها جنود الهوى حملة فانهزمت ، ويحلك تعطّرَ بالاستغفار فقد فضحتك روائح الذنوب . اذبح حُنجرة الهوى بسكين العزيمة . فما دام الهوى حياً فلا تأمن قلب قلبك . اجعل بكاك في الدجى شفيعاً في الزلل فزَندُ الشفيع تودي نار النجاح .

اكتب بمداد الدمع حُسْنَ الظن إلى من يحققه ولا تقنع في توبتك إلا بمكابدة حزن يعقوب أو بصبر يوسف عن الهوى .فإن لم تطف فبذلّ اخوته يوم وتصدق علينا يا معشر الأقوام . هذه مشاعل القبول .

يا فارغ البيت من القوت هذه أيام اللقاط ، يا مهجور كنعان متى تجد ريح يوسف ، يا سجن مصر متى يرى الملك سبع بقرات ، يا بيناً مين الفراق متى تسمع نغمات انّي أنا أخوك يا دائم الزلل متى تضع جبهة وإن كنا لخاطئين ، اليوم عهدكم فأين الموعد ، هيهات ليس ليوم عهدكم غدا ، إذا وقعت عزيمة الصدق في قلب العبد التائب رضي الملك فأنسى الملك ما كتب ، وأوحى إلى الأرض أكتمي على عبدي .

قتل رجل قبلكم مائة نفس ثم خرج تائباً ، فأدركه الموت ، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، فبعث الله ملكاً فحكم بينهم فقال : قيسوا ما بين القريتين ، وأوحى إلى هذه أن تباعدي وإلى هذه أن تقرّبي ، فوُجِد أقرب إلى قرية الخير بشبر فغفر له .

والحاكم والخصوم لا يعرفون سرّ ﴿ كذلك كدْنا ليُوسفَ ﴾ (١) إذا صدق التائب احببناه وأحييناه ، ﴿ وجَعَلْنا لَهُ نُوراً يمْشي بهِ في النّاسِ ﴾ (٢) . يا معاشر التائبين أوفوا بالعقود، انظروا لمن عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها فإن زللتم من بعد التقويم ، فارجعوا إلى دار المداراة فإن الله لا يملّ حتى تملوا .

---

(١) سورة يوسف ، الآية : ٧٦ .
(٢) سورة الأنعام ، الآية : ١٢٢ .

عودوا إلى الوصل عودوا   فالهجر صعب شديدُ
تذكّرونا فما   عهدي لديكم بعيدُ
كنا وكنتم قريباً   فأين تلك العهودُ
هل يرجع البان يوماً   أم هل تعود زرودُ

الفصل الثامن

في قهر النفس وردعها عن الشهوات

يا مقهوراً بغلبة النفس ، صُلْ عليها بسوط العزيمة فإنها إن عرَفت جدّك استأسرت لك وامنعها ملذود مباحها ، ليقع الاصطلاح على ترك الحرام ، فإذا صبرتَ على ترك المباح ، فإمّا منّاً بعد وإمّا فداء الدنيا والشيطان خارجان عنك ، والنفس عدوّ مباطن ومن أدب الجهاد : ﴿ قَاتِلُوا الّذينَ يَلُونَكُم ﴾ [1] ، إن مالت إلى الشهوات فالجمها بلجام التقوى .

وإن عرضت عن الطاعات فسُقْها بسوط المجاهدة ، وإن استحلَتْ شراب التواني ، واستحسنت ثوب البطالة فصحْ عليها بصوت العزم فإن رمقت نفسها بعين العجب ، فذكّرها خساسة الأصل ، فإنك والله مالم تجد مرارة الدواء في حلقك ، لم تقدر على ذروة من العافية في بدنك ، قد اجتمعت عندك جنود الهوى في بيت النفس فاحكمت حصن البطالة فياحزب التقى تسلحوا بسلاح العزائم ، وادخلوا عليها الباب . النفس مثل كلب السوء ، متى شبع نام وإن جاع بصبص ، الحرّ يلحا والعصى للعبد .

كان أحد السلف إذا قهر نفسه بترك شهوة أقبل يهتز اهتزاز الرامي إذا قرْطس ، إذا قوي عزم المجاهدة لأن له الأعداء بلا حرب ، لما قويت مجاهدة نبينا تعدّت إلى كل من تعدّى ، فأسلم شيطانه ، « اللهم دلنا

---

(١) سورة التوبة ، الآية : ١٢٣ .

على قهر نفوسنا التي هي أقرب أعدائنا الينا ، وأكثرهم نكاية فينا » .
يا هذا بدِّل اهتمامك لك باهتمامك بك ، واسرق منك لك فالعمر قليل ، تظلّم إلى ربك منك واستنصر خالقك عليك ، يأمرك بالجد وأنت على الضد ، أبداً تفرّ من الزحف ، ولكن لا إلى فئة تطاب نيْل العُلى ، وما ارتقيت درج المجاهدة . أتروم الحصاد ولم تبذر ، لولا إيثار يوسف السجن أحبُّ إليَّ ما خرج إلى راحة ﴿ وكذلك مكّنّا ﴾ ، [1] ربّ خفض تحت السرى وغنىً من عنَا ، ونضرة من شُحوب .

لمّا قوّم المؤمنون أنفسهم بالرياضة ، وقع عقدُ ﴿ إنَّ اللهَ اشْترى مِنَ المؤمِنينَ أنفُسَهُم وأمْوالَهُم بأنّ لَهُمُ الجنّة ﴾ [1] ، والنفس لم تُرْضَ إذا لم تُرَضْ ، لأنها كاب عقور ، وإنما يُراد الصَّيدُ لا العَضُوض . ويحك الأعضاء كالسواقي ، والمياه النجسة تؤثر في الثمرة ، أنت تستفتح النهار باطلاق الجوارح في صيد اللهو ، فإن حان حين الصلاة ، نعَقتَ بها وليست معلّمة فلا يجيب ، هيهات أن يخشع طرْف ما قوّمه محتسب يغضُّوا وأنْ يحضر قلب ما أزعجه تخويف ﴿ يَعلمُ السِّرّ وأخْفَى ﴾ [2] .

الناس من الهوى على أصناف — هذا نَقَضَ العهد ، وهذا وافي
هيهات من الكدور تبغي الصافي — ما يصلح للحفرة قلب جافي

الفصل التاسع
في حديث الدنيا والآخرة

أنت في حديث الدنيا أفصح من سَحبان وائل ، وفي ذكر الآخرة أعيا من باقل ، تقدم على الفاني ، ولا إقدام ابن معدي كرب ، وتجبنُ عن الباقي ولا جبْنَ حسّان . ويحك إنما تعجب الدنيا من لا فهم له ، كما أن أضغاث الأحلام تسُرّ النائم .

(١) سورة التوبة ، الآية : ١١١ .
(٢) سورة طه ، الآية : ٧ .

لقبُ الخيال يحسبها الطفل حقيقة فأمّا العاقل فلا يغتّركم . أتالفت الدنيا بيد حبّها عبيد طلَبها ، وكم عاقت عن وصول بلد الوصل ، كم ساعٍ يسعى إليها سَعْيَ الرُّخ ، ردّته معكوساً ردّ الغرزين ، يا أرباب الدنيا إنها مذمومة في كل شريعة ، والولد عند الفقهاء يتبع الأم ، متى نَبَتَ جسمك من الحرام ، فمكاسبه كزيت يوقد ، هذا عُمر مع كماله يقول : يا حذيفة هل أنا منهم ، وأنت تأمن مع ذنوبك . إذا كان بُنيامين نُسب إلى السرقة ، فأيُّ وجه لخلاص من خان .

رؤي عمر بعد موته بأثني عشر سنة فقال : الآن تخلصت من حسابي ، واعجباً أقيم للحساب أكثر من سني الولاية ، أفيتنبه بهذا راقد الهوى . يا متلطخاً بأقذار الظلم بادر الغسل من مدّ العوافي قبل أن يجزر ، لا يغرنك عيش أحلى من العسل ، فالمحاسبة أمرّ من العلقم . ستعلم أيها الغريم قدر غريمك ، إذ يلتقي كلُّ ذي ديْن وماطله ، الحجر المغصوب في البناء أساس الخراب . ليت الحلال سلِم ، فكيف الحرام .

كان لبّانٌ يخلط اللبن بالماء ، فجاء سيل فأهلك الغنم ، فجعل يبكي ويقول : إجتمعت تلك القطرات فصارت سيلاً . ولسان الجزاء يناديه : يداك أو كتاوفوك نفخ ، كم بكت في تنعم الظالم عيْنُ أرملة ، واحترقت كبد يتيم ، ولتعلمنّ نبأه بعد حين ، واعجباً من الظلمة ، كيف ينسون طيّ الأيام سالفَ الجبابرة ، وما بلغوا معشار ما آتيناهم ، أما شاهدوا مآلهم ، ﴿ فَكُلا أخَذْنا بذَنْبه ﴾ (١) ، أما دخلوا على أكوار الندم ، ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهمُ السّماء والأرْضُ ﴾ (٢) أما صاح بهم هاتف الانذار ، كم تركوا من جنات وعيون ، واعجباً للمغترين ، وقد خلت من قبلهم المُثلات ، أما يكفيهم من الزواجر ، وتبين لكم كيف فعلنا بهم ، من لهم إذا طلبوا وقت الفوت العَودَ ، فحيل بينهم وبين ما يشتهون ، كم دار دارت بنعم النِّعم دارت عليها دوائر النِّقم ، فجعلناها حصيداً ، يا معاشر الظلمة سليمان الحكم . قد حبس آصف

---

(١) سورة العنكبوت ، الآية : ٤٠ .
(٢) سورة الدخان ، الآية : ٢٩ .

العقوبة في سجن ، فلا تعجل عليهم ، واجرى رخاء الرخاء لئلا يكون للناس على الله حجة فلو قد هبت سموم الجزاء من مهبّ ، ولئن مستهم نفحة فقلعت سكّر ﴿ إنّما نُملي لَهُم ﴾ [1] ، فلا يستطيعون توصية ، فالحذر الحذر أن تقول نفس يا حسرتي ، ﴿ ولاتَ حينَ مَنَاص ﴾ [2] أبقى في قوس الزجر منزع ، أفنضرب عنكم الذكر صفحاً ، سفينة التقى تحتاج إلى حكام تمام ، واللّمم منافذ صغار في الدُّسُر فأحكم تلك البقاع بقَار الورع . هيهات قد خرقتها بالكبائر ، وما تنتبه لما صنعت حتى يصيح نوح الأسى لا عاصم ، يا هؤلاء منقاش العدل ، إذا لم ينتزع شوك الظلم ، أثّر ما لم يُؤمَن تعدية إلى القلب ، لا تُعربدوا في شكر القدرة ، فصاحب الشُّرطة بالمرصاد ، ويحكم لا تحتقروا دعاء المظلوم ، فَشَرر نار قلبه محمول بريح دعائه إلى سقف بيت الظالم ، نبالُه تُصيب ، نبله غريب ، قوسُه حُرقَه ، وتَره قَلَقه ، مرماته هدف ﴿ لأنصرنّك ولو بعد حين ﴾ ، سهمٌ سهمه الإصابة ، وقد رأيتَ وفي الأيام تجريب .

الفصل العاشر

الدنيا دار ممـــــــر

اخواني ارفضوا الدنيا ، فقد رفضت من كان أشغف بها منكم .

إتّعظوا بمن كان قبلكم ، قبل أن يتّعظ بكم مَنْ بعدكم . الدنيا خمرٌ ساعدَها تغريد طائر الطبع فاشتد سُكر الشارب ، ففات موسمُ الربح ، ثم بعد الافاقة يُقام الحدّ ، ويكفي في الضرب فوتُ الخير ، فإذا ماتوا انتبهوا ، ويحيكِ أنّ الموت سحاب والشيب وبْلُهُ ، ومن بلغ السبعين اشتكى من غير علة ، والعاقل من أصبح على وجَل ، من قرب الأجل ، يا هذا ! الدنيا وراءك والآخرة أمامك، والطلب لما

(١) سورة آل عمران ، جزء من الآية : ١٧٨ .
(٢) سورة ص ، الآية : ٣ .

ورائك هزيمة ، وإنما العزيمة في الإقدام ، جاء طوفان الموت فاركب سُفن التُّقَى ، ولا ترافق كنعان الأمل . ويحك انتبه لاغتنام عمرك ، فكم يعيش الحيوان حيران . الأسقام تُزعج الأبدان ، فلا بدّ من التحول ضرورة ، كأنك بك في لحدك ، على فراش الندم ، وإنه والله لأخشن من الجندل . فازرع في ربيع حياتك قبل جادبة أرض شخصك ، وادّخر من قوت قدرتك قبل زمان عجزك ، واعتبر حيلك مخافة الفقر في القفر . الحذار الحذار أن تقول نفس" يا حسرتي ، الحازم يتزود لما به قبل أن يصير لما به .

شجرة الحزم أصلها إحكام النظر ، وفروعها المشاورة في المشكل ، وثمرها إنتهاز الفرص ، وكفى بذهاب الفرص ندماً ، وكم فرصة فاتت فأصبح ربها يعضّ عليها الكفّ ، أو يقرع السّنّا . وعجباً لمضيع العمر في التواني ، فإذا جاء متقاضي الروح قال : إني تبت الآن ، وأنا لهم التناوش من مكان بعيد ، يا رابطاً مناه بخيط الأمل ، إنه ضعيف الفتل ، لو فتحت عين التيقظ لرأيت حيطان العمر قد تهدمت ، فبكيت على خراب دار الأمل . جسمك عندنا ، وقلبك على فراسخ ، لا بالتسويف ترعوي ولا بالتخويف تسلّوي ، ضاعت مفاتيحي معك .

الفصل الحادي عشر

في الحذر من الخـــــــاتمة

خوف السابقة وحذر الخاتمة قلقل قلوب العارفين ، وزادهم إزعاجاً . يحولُ بين المرء وقلبــه ، ليس لهم في الدنيا راحة . كلما دخلوا سكة من سكك السكون أخرجهم الجزع إلى شارع من شوارع الخوف . أروح بشجوٍ ثم أغدو بمثله ، وتحسب أني في الثياب صحيح . أحْكَمَ القوم العلم ، فحكمَ عليهم بالعمل ، فقاطعوا التسويف الذي يقطع أعمار الأعمال ، وانتبهوا فانتبهوا الليل والنهار ، وأخرجوا قوى العزائم إلى الأفعال ، فلما قضوا ديون الجدّ قضت علومهم بالحذر من الردّ حنوا فأنّوا وانزعجوا فما اطمأنوا ، أنفاسهم لا تخفى ، نفوسهم تكاد

تُطفىء لونَ المحب غماز ، دمع المشوق نمّام ، من ضرورة دوران الدولاب أنينه ، أُخفيَ كمدَ الهوى ودمعي ، في الخد على هواك شاهد ، تضادا في قلب فالجفن بلوعتي مقرٌ ، للعاذل واللسان جاحد . تضادا في قلب العارف جليل الخوف ، فلما وصل اسكندر الفكر ، عبّا زُبَرًا الهموم حتى ساوى بين الصَّدفَيْن ، ثم صاح بجند الهموم انفخوا ، فاستغاث الواجد لتراكم الكرب .

أيا جبلي نعمانَ بالله خلياً ، لا راحة للمحب في الدنيا . إنْ أحسَّ بالحجاب بكى على البعد ، وإن فُتح له باب الوصل خاف الطرد ، فيبكي إن ناءو أشواقاً إليهم ، ويبكي إن دنوْا خوف الفراق ، مَن لم يذق لم يعرف ، مَن لم يبتّ والحب حشوَ فؤاده ، لم يدرِ كيف تفتت الأكباد ، الفراق أظلم من الليل والوجد أحرُ من الجمر ، ففي فؤاد المحب نار جوىً ، أحرُّ نار الجحيم أبردُها .

اشتد قلق الخوف بابراهيم بن أدهم فصاح : إلهي إن كنت أعطيت أحداً من المحبين ما يسكن به قلبه قبل لقائك ، فأعطني ، فقد ضرّ بي القلق .

لو شئت داويت قلباً أنت مسقمه وفي يديك من البلوى سلامته
علامتهُ كُتبت في يدّ عاشقكم مَن كان مثلي فقد قامت قيامته

فرأى الحق في منامه وهو يقول : يا إبراهيم ! أما استحييت مني ، تسألني أن أعطيك ما يسكن به قلبك قبل لقائي ، وهل يسكن قلب المشوق إلى غير حبيبه .

يا سابقَ العيسِ قد برَاها حملُ همـــوم بها عِظَـــامِ
رفقاً بها إنهــــا جلــــود مُلْصقـــات عـــلى عِظـــامِ
أشواقها خلفها وشوقي خلافَ أشواقها أقـــامِ

الفصل الثاني عشر

اللّهمّ نوّر ظلمة دنيانا بضوء من توفيقك ، واقطعْ أيامنا في طلب الاتصال بك ، فإنك إذا أقبلت سلّمت ، وإذا أعرضت أسلمت . إخواني إذا سبقت سابقة السعادة لشخص ، دلّته على الدليل قبل الطلب ، ولقد اخترناهم على علم على العالمين ، إنّ المقادير إذا ساعدت ، ألحقت العاجز بالحازم .

كان ذو البجادين يتيماً في الصّغر ، فلما عمّه الفقر كفله عمّه . فنازعته نفسه في اتّباع الرسول ، فهمّ بالنهوض ، فإذا بقيّة المرض مانعة ، فقال لسانُ التسويف للنفس : قفي حتى يتقدم العم ، فلما تكلمت الصحة نفذ صبر المشتاق ، فقال : يا عم ، قد كنت أنتظر سلامتك بإسلامك ، وما أرى زمن زمنك ينشط ، فقال : والله لئن أسلمت لأنزعنّ كلّ ما أعطيتك ، فصاح لسان عزمه : نظرةٌ من محمد عليه الصلاة والسلام أحبُّ إليّ من الدنيا وما فيها . هذا مذهب المحبين إجماعاً من غير خلاف .

ولو قيل للمجنون : ليلى ووصلها تريد ، أم الدنيا وما في طواياها ؟ لقال : ترابٌ من غبار ديارها ، أحب إلى نفسي وأشفى لرؤياها ، فعاد العم في هيبته حتى جرده من الثياب ، فناولته الأم بجادالها ، فقطعه نصفين فاتّزر بواحدٍ وارتدى بآخر ، وخرج في حلة . ربّ أشعث أغبر سنّة الأحباب واحدةً ، فإذا أحببت فاستنن ، فنادى صائح الجهاد في جيش العسرة ، فتتبع ساقه الأحباب ، راكباً عجز العزم مع الضجر ، والمحب لا يرى طول الطريق ، إنما يتلمح المقصود ، ألا بلّغ الله الحمى من يريده ، وبلّغ أكناف الحمى من يريدها . فنزل إليه ملك الموت ، بتوقيع الإطال شوق الأبرار إلى لقائي .

فنزل الرسول يمهد له اللحد للمأمور إذا رأيت لي طالباً فكن له خادماً ، وصاح بأبي بكر وعمر « أدنيا إليّ أخاكما » وانتدب لمرثية لفظها : « اللهم إني أمسيت راضياً عنه فارض عنه » .

فقال ابن مسعود : ليتني كنت صاحب هذا اللحد .

الفصل الثالث عشر

حبُّ الدنيـــــا سمٌّ قاتل

يا هذا ! حب الدنيا أقْتَلُ من السُّم ، وشرورها أكثر من النمل ، وعين حرصلك عليها أبصر من الهُدهد ، وبطن أملك أعطش من الرّمل ، وفم شَرهلك أشربُ من الهيم ، وإن خُضتَ في حديثها فأنْطَقُ من سَحْبان ، وإن انتقدتَ دنانيرها فأنشَبُ منْ دِغْفَل ، حليلتك في تحصيلها أدق من الشعر ، وأنت في تدبيرها أصنع من النحل ، تجمع فيها الدُّرّ جمْعَ الذّر .يارفيقاً البِله لدود القز . واعجباً ما انتفعت بموهبة العقل ، فأنت كدود القز ينسج دائماً ، ويهلك غماً وسط ما هو ناسجه ، حرصك بعد الشيب أحر من الجمر ، أبقي عمر أبرد من الثلج ، والدنيا في قلبك أعز من الرُّوح ، وستصير بعد الموت أهون من الأرض ، أنت في الشر أجرى من جواد ، وفي الخير أبطىء من أعرج . معاصيك أشهر من الشمس ، وتوبتك أخفى من السُّها ، الزكاة أثقل عندك من أحُد ، والصلاة عليك كثقل صخر على صخر . طريق المسجد في حسبان كسلك كفر ستة ي دير كعب ، صدرك عند حديث الدنيا أوسع من البحر ، ووقت العبادة أضيق من عقد التسعين ، يا مَن هو عن نجاته نوْمُ من فهد ، ضيّعت وقتاً أنفس من الدُّر ، وإن عَرَضت خطيئة وثبتَ وثوب النّمر .

فإذا لاحت طاعة رُغْتَ روغان الثعلب ، فإذا عاملت الناس استعملت غَدْر الذئب .

تَقَدِمُ على الظلم إقدام الأسد ، وتختطف الأمانة إختطاف الحدأة ، يا أظام من الجُلَنْدي ما تأمنك غزلان الحرم ، يا عذريّ الهوى في حب الدنيا ، يا كوفيّ الفقه في تحصيلها ، يا بصريّ الزُّهد في طلب الآخرة ، واعجباً ! القلب أضعف من البعوض ، كيف صار أقوى من الجَنْدل (١)

(١) الجندل : الصخر الأصم .

ما يعجبه سَجْعُ قُسّ [1] ، ولا يؤثر فيه وعظ الحسن [2] ، ولا يرقُّ لغزل جرير [3] ، فليته فسّر منام الأمل علي بن سيرين . اليقظة قُفلَ قلبك . رومي ما يقع فيه فش .

الفصل الرابع عشر
في العقل ، وتعلقه بحبال التُّقى

العقل رفيق القلب ، والطبع قرين النفي ، فلا تَقَارُب بين النفس والقلب ، فربّ جارٍ جار سرادق القلب على أطناب العقل ، وخيمة النفس على أوتاد الهوى أكيس حدة ، خمر الطبع بمزاج ماء الرياضة أشد دازر العقل بحبال التقى ، ماء طبعك أُجاج [4] ، وماء شرعك عَذْب ، وقد مزج الابتلاء بينهما . نور العقل يضيء في الطبع فتتبين جادّة الصواب للسالك ، وزناد الفكر حين يودي يُري عواقب الأحوال . يوسف [5] العقل ينظر إلى العواقب ، وزليخا [6] الهوى ، تتلمح العاجل ، والعزائم منازل الأبطال ، والصبر دأب الرجال ، وإنما أشرح وِرْد يوسف لا وظيفة زليخا ، ولا أقول لك : أقلع شجر الطبع من أرض الوضع ، كيف يمكن وقد قال : ﴿ زُيِّنَ للنّاسِ حُبُّ الشّهوات ﴾ [7] . وإنما أقول دُم على المجاهدة في الجسم .

وكلما نبعت عروق الهوى فاقطع ، وكلما كلّ ما به تقطع ، فاشحذ واقنع بساحة الذّل فعند المسجون شغل من الرياض . ويحك أترك وأنت

---

(١) قس : هو قس بن ساعدة ، جاهلي ، عارف بالله ، متكلم مشهور وخطيب ذائع الصيت .
(٢) الحسن : هو الحسن البصري ، عالم ، فقيه ، زاهد ، متعبد ، واعظ ، باع الدنيا واشترى الآخرة .
(٣) جرير : من شعراء العصر الأموي ، عاصر الأخطل والفرزدق واشتهر بقصائده الغزلية .
(٤) الماء الأجاج : الماء المالح .
(٦) يوسف : وهو النبي يوسف عليه السلام ، نظر بعقله ، وناجى ربه أن يخلصه من ضائقته حين تعرضت له تلك المرأة « زليخا » بجمالها ومفاتنها ، فكان صديقاً نبياً .
(٦) زليخا : وهي امرأة العزيز ، حيث شغفها حب يوسف عليه السلام .
(٧) سورة آل عمران ، الآية : ١٤ .

تهوى ، وفي القلب ما في القلب من لوعة الهوى ، ولكنني أبدي الصدود مهرجا .

إخواني : من أفسد حسابه بالخيانة استحيى من عرض الدستور ، من توسخت ثياب معاملته بالمعاصي لم يقرب من المقربين .

من سودت الذنوب وجه جاهه ذلّ بين الأكرمين ، مَن ركب ظهر التفريط نزل به دار الندامة ، أما سمعتم أن داود أعطي نعمة نغمة . كان يقف لها الماء فلا يسير والطير وقوف الأسير ، فعمل مرض لا تغفر في حجاب يغضوا ، فامتدت يد البصر فقدت قميص يوسف العصمة ، فآثر زلَلُه حتى في تلاوته ، وقد كان معمار الوصال يتفقد قديماً آلات صوته ، فلما أقبل على الذنب أعرض المعمار عن المراعاة ، فتشعث منزل الصفا وانقطعت جامكية العسكر . فتفرقت جنوداً وبتّى ، فيالك من جرح تعز مراهمه . كان عيش عُشِّه خصراً فأحالته الحال سنة ، فكان أيام الوصال كانت سنة ، فكاد يقطع باليأس حتى التقى الخضر بالياس .

أرقي قــد رقّ لي مــن أرقي ورثى لي قلقــي مــن قلقــي
وبكاي مــن بكاي قــد بكــى وتشكّت حُرَقي مـــن حرقي

كان إذا أراد النياحة نادى مناديه : ألا مَن أراد أن يسمع نَوْحَ داود فليخرج ، فتجتمع أهل الأحزان في ماء ثم الندب ، فتزداد الحُرق بالتعاون .

يا بعيدَ الــدار عــن وطنــــه مفرداً يبكــي على شجنــــه
كلمــا جــدّ النحيـــب بــه زادت الأسقـــام في بدنـــه
ولقد زاد الفــؤاد شجــــــيً طائــرٌ يبكــي على فَنَنــــه
شاقــه ما شاقــني فبكـــــى كلنـــا يبكــي على سَكَنــه

الفصل الخامس عشر

في الاخـــــــــلاص

الاخلاص مسك مصون في مسك القلب ، ينبه ريحه على حامله .

العمل صورة والاخلاص روح ، إذا لم تُخلْص فلا تتعب ، لو قطعت سائر المنازل لم تكن حاجاً إلا بشهود الموقف ، ولا تغتر بصورة الطاعات ، فإن خصم الإخلاص إذا جاء عند حاكم الجزاء ألزم الحبس عن القبول ، سوق الاخلاص رائجة رابحة ليس فيها كساد ، المخلص يعد طاعاته لاحتقارها عرضاً ، وقلم القبول قد أثبتها في حيز الجوهر .

المخلص مبهرج على الخلق بستر الحال .

وببهرجته يصح النقد ،

لما وصف الرسول ﷺ للصحابة جمال الخمول من حلية أويس عمل معْول الشوق في قلب عمر ، فكان في كل عام ينشد بلفظ الطالب ، ويسأل عن أهل اليمن

ألا أيها الركب اليمانـــون عرّجـــــو علينا فقد أمسى هوانا يمانيـــا
نسألكم هل سأل نعمـــان بعدنـــــا وحبّ الينا بطنُ نعمان واديا

فلما لقيه عمر قال : من أنت ؟ قال : راعي غنم وأجير قوم ، وستر ذكر أويس الأولياء تحت ستر الخمول ، ما يعلمهم إلا قليل ، فإن عرفتهم بسيماهم ، فتلمح نقا الأسرار ، لا دنس الثياب ، ولا تعدُ عيناك عنهم ، كان في ثوب أيوب السختياني بعض الطول لستر الحال ، وكان إذا تحدث فرقّ قلبه وجاء الدمع .

قال : ما أشد الزكام ، أفدي ظباء فلاةٍ ما عرفن بها ؛ مضغ الكلام ولا صبغ الحواجب .

كان إبراهيم بن أدهم إذا مرض يجعل عند رأسه ما يأكله الأصحّاء كيلا يتشبه بالشاكين . هذه والله بهرجة أصح من نقدك .

قد سحب للناس أذيال الظنون بنا ، وفرق الناس فينا قولهم فرقاً ، فكاذب قد رمى بالظن غيركم ، وصادق ليس يدري أنه صدقاً للمؤمن في إخلاصه أحوال يتصدق بيمينه فيخفيها عن شماله .

كان النخعي إذا قرأ في المصحف ، فدخل عليه داخل غطّاه .

وكان ابن أبي ليلى يصلي ، فإذا دخل عليه أحد نام على فراشه .

قال الحسن : كان الرجل تأتيه عبرته فيسترها ، فإذا خشي أن تسبقه قام من المجلس .

باح مجنـــون عامر بهـــــواه وكتمت الهوى فمتُّ بوجدي

سحقت نافجة مسك المحبة في محاريب المتعبدين ، وليس كل ثوب يعلّق به الطيب ، ربّ قائم حظه السهر ، كم من مرأى يتعب في تهجده ، فتنفض ريح الرياء أوراق تعبده فتبقى أغصان العمل كالسلي وليس للشوك نسيم ، فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم ، إذا بهرج المنافق على عمل المخلص فماجت أرائج النفاق فتجافته القلوب بجيفته ، فذهب عمله جفاء .

واعجباً ! من أهل الرِّياء على من يبهرجوه ، وربك يعلم ما تكن صدورهم . غلب على المخلصين الخشوع ، فجاء المرأى يبهرج فقيل : مهلاً فالناقد بصير . لما أخذ دود القز ينسج جاءت العنكبوت تتشبه ، فنادى لسان الحال الفارق :

إذا اشتبكت دمـــوع في خدود تبيّن من بكى ممّن تباكى

الفصل السادس عشر

في القدَر

يا مختار القدر ! اعرف قدر قدرك إنما خلقت الأكوان لأجلك ، اقبل عليَّ فإني عليك مقبل متى رمت طلبي فاطلبني عنــدك بدليل ويسعني :

ساكنٌ في القلـــب يعمــــــره لست أنساه فأذكـــــره
غاب عن سمعـــي وعن بصري وسويـــد القلـــب يبصره

بيننا عهد يوم ألسْتَ شجراته ، تُسْقى بمياه « هل من سائل » .

إذا مرضنا آتيناكم نعودكمـــو وتذنبون فنأتيكم فنعتـــذر

أودعت إقرارك الحجر الأسود وأمرتاك بالحج لتستحي بالتذكر من نقض العهد .

تشاغلتموا عنا بصحبة غيرنـــا وأظهرتموا الهجران ما هكذا كنا
وأقسمتموا أنلا تحولوا عن الهوى وحياة الحب حلتم وما حلنا

لعله : فحلتم عن العهد القديم وما حلنا .

الحجر الأسود صندوق أسرار المواثيق ، مشتمل لِما أملى المُعَاهد ، مُشْتَملٌ على حفظ العهود فاستلم المشتمل ليعلم أن إقرارك لا عن إكراه ، إن كنت نسيتني فما نسيتك .

فلا تحسبوني إني نسيت ودادكم وإن طال المــدى است أنساكم
حفظنـــا وضيعــتم عهود ودادنـــا فلا كان من المهجر واللوم أغراكم

* * *

يا محدثاً في عهد بلى ما ليس فيــه ، تظهر من أدران الزلل فلا بدَّ

للمحدث من طهارة خلقتك يوم الفطرة طاهراً ، ووفرت نصيبك من رش نوري عليك ، فأينعت أغصان الاقرار ، وهدلت حمائم الوفاق ، وتدلّت ثمار الوفا ، فلما تدنست بالذنوب عطشت أرض الوصال . فمالت أغصان المحبة ، وقحلت روضة المعاملة ، فطاف على جنّة العزم طائف المصادمة فأصبحت كالصريم ، فنكّس الآن رأس الذل طول شتاء الهجر ، وابعث بريد الأسى ليبعث مزْن الحزن لعلها تبكي على قاع الإفلاس ومسكن المسكنة فتدب المياه في عروق أغصان الاب فتهتز العيدان في ربيع الإستدراك ، فما ارتوى زرع توبة قط إلا من جداول الحدق . لعل أيامنا التي سلفت تعود بيضاً كما عهدناها . يا هذا لا ضرر يلحقنا في معاصيك ، إنما المراد صيانتك ، ولا نفع لنا في طاعتك إنما المقصود ربحك فتدبر أمرك .

يا قوم من غيّرتنا عليكم حرّمنا عليكم الفواحش ، كما ندعوك وتأبى إلا الهجر ، فلا للعهد رعيت ولا للتقويم استويت .

يا مَن يعزُّ علينا أن نفارقهـــم وجداننا كل شيء بعدكمُ عدمُ
وبيننا لو رعيـــتم ذاك معرفة إن المعارف في أهل الهوى ذمم

الفصل السابع عشر

في صروف الدهـــــــــر

إخواني : من رأى تصرُّف الدهر انتبه ما في الغيَر ، عبْرَ مهْد الطفل عنوان اللحد ، ريح الأجل يقشع غيم الأمل ، الشباب باكورة الحياة . والشيب رداء الردى ، لو أن أيام الشباب تُباع لبدلنا فيها أنفس الأنفس ، متى أسفر صبح المشيب هوى نجم الهوى ، إذا قرع المرء باب الكهولة ، فقد استأذن على البلى ، مَن عرف الستين أنكر نفسه ، مَن بلغ السبعين اختلفت إليه رُسُل المنيّة ، يا مَن قد انطوى بُرد شبابه وجليت خلَع خلعه ، وبلغت سفينة سفره الساحل ، قف على ثنية الوداع ، فلم يبق إلا نظرة لنعم . قطع الشيب سلك العمر ، فالتقط الخرز ورثّ

سقاء الأمل ، فاشدُد بالعمل بعض الحرز ، عمرك يذوب ذوبان الثلج ، وتوانيك أبرد منه .

ولم يبقَ من أيـــام جمْع إلا مـِـــنى   إلى موقف التجمير غير أمَاني

أنت تحب الإقامة ولكن ما تحمل المفازة . في نفس الجمَل غير ما في السائق ، ولو تُرِك القطا لنام العاقل . من استعد لما يجوز وقوعه كيف يغفل عما لا بد من كونه . زمن التزود قصير لا يحتمل التسويف ، واعجباً لعمرٍ لو مُلِئ بالزاد خيف عليه العوز ، فكيف إذا تناهبته أيدي البطالة ، واعجباً لمن ينْشُد ضالته ، وقد أضل نفسه ، ولمن يُشفق أن ينْفق دراهمه وقد ضيع عمره .

كان ثلاّج لا معاش له سوى بيع الثلج ، فبقي عنده منه شيء لم ينْفق ، فجعل يقول في مناداته : ارحموا من يذوب رأس ماله .

فقرك من الخير مشوب بالكسل ، ومتى كان الفقير كسلان فلا وجه للغنى ، لو كانت لك أنفة من التواني ، لخرجت من ربْقة الذل . بعتَ قيام الليل بفضل لقمة ، شربتَ كأس النعاس ففاتتك الرفقة ، امتلأت طعاماً فإذا غريم الفراش يتقاضاك بديْن النوم ، فضُرب على أذنك لا في موافقة أهل الكهف . تناولت خمر الرقاد ، فوقع بك صاحب الشرطة، فعمل في حقك بمقتضى نم وقم ، فجعل حدك الحبس عن قيام الليل ، فخرج على توقيع قصتك وقت الفجر ، رضوا بأن يكونوا مع الخوالف ، والله لو بعت لحظة من خلوة بنا بتعمير نوح في ملك قارون لغبِنت . لا بل بما في الجنان كلها ما ربحت ، ومن ذاق عرف .

الفصل الثامن عشر

في وصف الملائكة والشياطين والبشر

خلقت الملائكة من نور لا ظلمة فيه ، وخلقت الشياطين من ظلمة لا نور فيها ، وركِّب البشر من الضدين ، فظلام نفسه مقترن بنور عقله ،

بينهما حاجز لطيف ، لا تعلمه إلا بالمجاهدة ، كما أن بين الشمس والظل خط لا يراه إلا المهندس ، فالملك يسبح ، لأنه صاف ، والشيطان يعصي لأنه كدر ، وإنما العجب تقوى من تَقَوّى في حتمه الأضداد ، الآدمي عقل وهوى ، غير أن بين الهوى والهدى برزخ من التوفيق ، لولا لطائف الإعانة قاع سِكْرُ التّماسك ، ولم تطق البشرية المدافعة ، لولا لاحقة لنهدينهم لسابقة سبقت لهم ، فالصبر الصبر أيها المحارب ، ولا تخف من كمين واستفزز ، ما دام لك مدد . ﴿ يُثَبِّتُ اللهُ الّذينَ آمَنُوا ﴾ [1] . هبت عواصف التكليف البشري فلم يتماسك هاروت وماروت ، فيُرمى بهما رمي عاد .وقال موافق : أتجعل فيها إن للحرب رجالا خُلقوا .

كانت الملائكة تدعو على العصاة قبل هاروت وماروت ، فلما جرت قصتهم صاروا يسبحون بحمد ربهم ، ويستغفرون لمن في الأرض . كما كان داود يقول لا تغفر للخطائين ، فلما زل عرف ، وعذلت أهل العشق حتى ذقته فعجبت كيف يموت من لا يعشق .

وعذرتهم وعرفت ذنبي أني عيرتهم ، فاقيت فيهم ما لقوا ، خضت بحر الأمانة فوقفت الملائكة على الساحل ، ونهضت عزيمة الآدمي لسلوك سبيل الخطر ، والمحب لا يرى العواقب . ولسكران الوجد إقدام . يغالبني شوقي فأطوي السرى ولم يزل ذو الشوق مغلوباً . أين مجاهدة الآدمي من تعبد الملائكة ، حال الآدمي أعجب ، تسبيح الملائكة يدور على ألسنتهم بالطبع ، تعبدهم لا عن تعب ، ورد شجرهم خال من الشوك ، إلا غلب على أوصافهم أنوثية السلامة ، لا ذكورية الجهاد سبح تسبيحهم عفو وما نظمها تكليف ثمرات زرعهم نشأت لا عن كلف ، سقاها سيح العصمة ، فكثر في زكواة تعبدهم قدر الواجب ﴿ ويَسْتَغْفِرونَ لمنْ في الأرْضِ ﴾ [2] . ظنت الملائكة أن أيدي العصمة أصنع من نظم التسبيح ، ونسوا أن يبس الأشجار أيام الشتاء سبب لزهو النور في الربيع .

---

(١) سورة إبراهيم ، الآية : ٢٧ .

(٢) سورة الشورى ، جزء من الآية : ٥ .

الفصل التاسع عشر

في العزيمة

العزائم في قلوب أربابها كالنار تشتعل ، إنها لتستعمل البدن ولا يحس بالتعب . يغلبني شوقي فأطوي السرى .

للعزائم رجال ليسوا في ثيابكم ، وظنوا النفس على الموت فحصلت الحياة . لو رأيت ذا العزم قد برز في براز الجد ، يمد عناناً لم تخنه الشكائم . فلما عاين هولاً يلين له قلب الجبان حنّ إلى عودة المعجوم من الصلابة فهو في صف الجهاد أثبت قلباً من القطب في الفلك .

إن جنّ الليل لم تتصافح جفنانه ، لانتظر لقيامه وقت السحر ، وكيف ونملة الصادي تأبى له إنتظار الوراد ، فما مضى إلا قليل ، وإذا به على قمة المجد الموثل جالس ، من لم يقم في طلاب المجد ، بالجد لم ينم في ظلال الشرف . تقول سليمى : لو أقمت بأرضنا ، ولم تدارني ، للمقام أطوف .

كل الصحابة هاجروا سرّاً ، وعُمر خرج ظاهراً . وقال للمشركين : ها أنا أخرج إلى الهجرة ، فمن أراد لقائي فليلقني في بطن هذا الوادي ، فليت رجالاً فيك قد نذروا دمي من عزم عمر على طلاق الهوى ، أخذ أهله من رؤية الدنيا ، فكان بيته وهو أمير المؤمنين ، كبيت فقير من المسلمين . تجمعت في فؤاده همم ، ملأ فواد الزمان إحداها .

كان رضي الله عنه يقول : لئن عشت لأدعنّ أرامل أهل العراق لا يحتجن إلى أحد بعدي وهمة بعثتها همة زحلُ من تحتها بمكان القرب من زحل .

لما وليَ عمر بن عبد العزيز سمع البكاء في داره فقيل : ما لهم ؟ قيل : إنه حيّر النساء والجواري ، فقال : من شاءت فلتقم ، ومن شاءت فلتذهب ، فإنه قد جاء أمر شغلني عنكن ، أقسم بالعفة لا تيمة ظبي

رنا أو غصن تأودا ، وكلما قيل له : تهنّ قد حُزت المنى ، قال : وأجزت المدى .

واعجباً أين العزائم ، إن العجز لشريك الحرمان وإيثار الراحة يورث التعب .

والهوْنُ في ظـــل الهُـوينْـــــا كامن وجلالةُ الأخطار في الإخطار

اغسل وجه الجد من غبار الكسل ، وانفق كيس الصبر في طريق الفضائل .

إن كانت لك عزيمة فليس في لغة أولي العزم « ربما وعسى » ليس عزماً ما مرض القلب فيه ، ليس همّاً ما عاق عنه الظلام .

الفصل العشرون

في العمل قبل دنوّ الأجل

تأتيها في ظـُلمة ظـُلمة ، ياموغلاً في مفازة تيهة ، ياباحثاً عن مدية حتفه ، يا حافر أزبية هلاكه ، يا معقاً مهواة مصرعه بئس ما اخترت لأحب الأنفس اليكم ، ويحك تلمح الجادة فأنت في ظلام عين أملك ترى المحبوب ، وتعمى عن المكاره إذا كان عمرك في إدبار والموت في إقبال، فما أسرع الملتقى ، كيف يبقى على حالته ، من يعمل الدهر في إحالته كيف تطيب الدنيا لمن لا يأمن الموت ساعة ، ولا يتم له سرور يوم ، كما قرع الزمان بوعظه فما سمعت لينذر من كان حياً . صاح ديك الإيقاظ في سحر ليل العبر فما تيقظت فتنة . إذا نعق غراب البين بيّن البين.

ومُشيّتِ العزمــــات يتفق عمـــره حيران لا ظفر ولا إخفاق

يا مؤثراً يغني على ما بقى ، هذا رأي طبعك هلاّ استشرت عقلك ، لتسمع أنصح النصائح . من كان دليله البوم كان مأواه الخراب ، ويحك شهوات الدنيا أحلام يزخرفها نوم الغفلة ، ونظر الجاهل لا يتعدى

سرر الهوى ، ولا يخرق حجاب الغفلة . فأما ذو الفهم فيرى ما وراء الستر ، لاحت الشهوات لأعيُن الطباع فغمض عنها الذين يؤمنون بالغيب ، فوقع أكثر الخلق في التيه ، والقوم على هدىً من ربهم . رحل الصالحون وفي القوم تثبط .

لقد علموا شرف المقصد ، ولكن بعدت عليهم الشقة ، واأسفاً لو عرفوا عمن انقطعوا تقطّعوا يصبحون في جمع الحطام . ويبيتون على فراش الآثام ، وينفقون في الهوى بضائع الأيام . ﴿أولئكَ الّذينَ اشْتَرَوْا الضَّلالةَ بالهُدى﴾[1] . سلمت إليهم أموال الأعمار ، فأنفقوها في ديار البطالة ، ﴿فمَا ربحَت تجارَتهُم﴾[2] . هذا والعير تصيح فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم .

غير أن المسامع قد تماكها الصمم ، ويجبهم هل تربوا ، فساد رأي الأمل ، وأنْ عسى أن يكون قد اقترب أجلهم .

إن في الماضي للمقيم عبرة ، وليس المرء من غده على ثقة ، ولا العمر إذا مر يعود ، وعواري الليالي في ضمان الارتجاع ، والدهر يسير بالمقيم . فاشتر نفسك والسوق قائمة ، والثمن موجود ، ولا تسمعنّ حديث التسويف ، فما لغدٍ من حادثٍ بكفيل .

الفصل الحادي والعشرون

الحياة عمل وجهاد

لما عرف الصالحون قدر الحياة أماتوا فيها الهوى فعاشوا انتهبوا بأكُفّ الجدّ ، ما قد نثرته أيدي البطالين ، ثم تخايلوا القيامة فاحتقروا الأعمال فماتت قلوبهم بالمخافة ، فاشتاقت إليهم الجوامد ، فالجذع يحن إلى الرسول ، والجنة تشتاق إلى علي . كم شخص أشخصه الشوق إلى الحج ، يكاد مودع المواثيق قبل تقبيله يقبله ، فلما قضى الناسك المناسك ثم رجع بقي سهم

(١) سورة البقرة ، الآية : ١٦ .
(٢) سورة البقرة ، جزء من الآية : ١٦ .

الشوق اليه في قلب مني . خواطرهم تراقب حدود الشرع وقلوبهم وقف على محبة الخالق ، وقف الهوى بي حيث أنت فليس لي ، متقدم عنه ولا متأخر . انفوا مزاحمة الخلق في أسواق الهوى وقوي شوقهم فلم يحتملوا حصر الدنيا ، فخرجوا إلى فضاء العز في صحراء التقوى ، وضربوا مخيم الجد في ساحة المجد .

وتخيروا شواطيء أنهار الصدق فشرّعوا فيها مشارع البكاء ، وانفردوا بقلقهم ، يسعدهم ريم الفلا ، وترنّمت بلابل بلبالهم ، في ظلام الدجى فلو رأيت حزينهم يتقلب على جمر الغَضا .فيا محصوراً عنهم في حبس الجهل والمنى ، إن خرجت من سجنك لترويح شجنك من غم البلى عرِّج بذاك الوادي ، تلمح القوم الوجود ففهموا المقصود ، فجمعوا الرحل قبل الرحيل ، وشمّروا في سواء السبيل ، فالناس يخوضون في وحل الاكتساب ، وهم في ظل القناعة ، ومَرْضى الهوى يستغيثون في مارستان البلى وهم في قصور السلامة ، وكَسْلى البطالة على فراش التواني ، وهم في جلباب السباق . ﴿ يَرْجُونَ تِجَارةً لَنْ تَبُورَ ﴾ [1] . يُجْرون خيل العزائم في ميادين المبارزة ، ويضربون كرة الدنيا بصولجان الأنفة ، فما مضت إلا أيام حتى عبروا القنطرة ، وقد سلموا من المكس غناهم في قلوبهم . ﴿ سِيمَاهُم في وجُوهِهِم ﴾ [2] . ما ضرّهم ما غرّهم أعقبهم ما سرّهم هان عليهم طول الطريق ، لعلمهم بشرف المقصود وحلت لهم مرارات البلى حباً لتعجيل السلامة فيا بشراهم يوم هذا يومكم ، شقينا في النوى زمناً ، فلما تلاقينا كأنّا ما شقينا .

سخطنا عندما جنّت الليالي ... فما زالت بنا حتى رضينا
سعدنا بالوصال وكم سعينا ... بكاسات النعيم وكم شقينا
فمن لم يحيى بعد الموت يوماً ... فإنّا بعد ميتنا حيينا

(١) سورة فاطر ، الآية : ٢٩ .
(٢) سورة الفتح ، الآية : ٢٩ .

الفصل الثاني والعشرون

في التوبة الصادقة

سبحان من يرسل رياح المواعظ ، فتثير من قلوب المتيقظين غيْم الغم على ما سلف ، فنسوقه إلى بلد الطبع المُجْدب برعد الوعيد وبرق الخشية ، فترقى دموع الأحزان من قعر بحر القلب إلى أوْج الرأس فتسيل ميازيب الشؤون على نطوع الوجنات ، فإذا عُشْبُ السرّ تهتز فرحاً بالإجابة ، إذا أرعدت سحائب التخويف ، انزعج لها قلب المذنب ، فانفتحت صحائف أصداف سرّه ، كانفتاح أصداف البحر لتلقي قطر نيسان فقطرت فيها قطرات عزائم ، عِقْدها لؤلؤ ربيع العرفان .

التوبة الصادقة كيمياء السعادة . إذا وُضعت منها حبّة صافية على جبال من أكدار الذنوب ، دكتها كهيبة التجلي قبل المباشرة ، فصارت كُحْلاً مصلحاً لأحداق البصائر .

رُبّ ذنبٍ أدخلَ صاحبه الجنّة .

إذا صدق التائب قُلبت الأمارة مطمئنة .

لما أخذ الخليل عليه السلام في طريق الصبر ، فتبعه الذبيح واستسلما ، ألقى على السكين السكون إذا جالس التائب رفيق الفكر ، أعاد عليه حديث الزلل ، وندمه على ركوب الخطل ، فرأيت العين التي كانت فَجرت قد انفجرت .

وسَمِعَت لسان الأسى يعيد لفظة : لا أعود ، وعاينت عامل اليقظة قد بثّ عمّال الجد في رُستاق القلب للعمارة .

فيا أيها المذنب : إذا أشْكل عليك أمر فليفصح لك دمعك ، إذا أُعجمت أطلال هند على البلى ، فدعك في بث الغرائم .

فصح يا مطلقاً في وصالنا . راجع يا حالفاً على هجرنا كفّر إنما أبعَدْنا إبليس لأنه لم يسجد لك ، فواعجباً كيف صالحته وهجرتنا .

ويحلك لك عندنا من القدر ، ما لا تعرفه لليلة القدر .

دعا الله من أهْوى وإن كان مارعاً حفظنا له العهد القديم وضيعـــا
وصالحت قوماً كنت أنهاك عنهـــم وحقك ما بقيت للصلح موضعا

الفصل الثالث والعشرون

الدنيا تغرُّ الانسان الساذج

حِبال الدنيا خيال تغرُّ الغِرّ انقطعت منذ اتصلت بعزّة فرعون الهوى، إذا ألقى موسى الزهد .

عصى الشهوات إذا هي تتلقّف الدنيا شوقٌ فيها ضجيج الشّهوات فإذا إشتغلت بها فمن يسمع المواعظ نادى بالصالحين أمير نمل التوفيق ، عند مر سليمان البلى ، كفُّوا أكُفّ الطباع عن تناول لقم الهوى . ﴿ لا يَحْطِمَنَّكُم سُلَيْمان وجُنُوده ﴾ (١) .

سبْعةٌ يظلّهم الله عز وجل في ظلّه يومَ لا ظلّ إلا ظله . منهم رجلٌ دعته امرأةٌ ذات جمالٍ إلى نفسها ، فقال : إنّي أخافُ الله .

اسمع يا مَن أجاب عجوزاً شَوْهاً لاحَ للأولياء حبُّ المشتهى .

فمدُّوا أيدي التناول ، فبان للبصائر خيْطُ القحّ ، فطاروا بأجنحة الحذر ، فوصلوا إلى مفازة الفوز ولسان حال كل منهم ينادي :

﴿ يا ليْتَ قَوْمي يعْلمونَ ﴾(٢) ، ما أصعبَ السِّباحة في غدير التِّمساح ، ما أشقّ السفر في الأرض المُسْبعة ، يا مقيّد الوجود في فناء الغنا قامت قيامة الملامة وما تسمع لعدم نصحك صوت النصح ، ولكن صمم الأذن مانع .

---

(١) سورة النمل ، الآية : ١٨ .
(٢) سورة يس ، الآية : ٢٦ .

كم لاحت لك شهوة تُرْدي . ويعقوب المواعظ يعضُّ أنامل التحذير ، يوم البرهان وأنت لا تلفت ، ويحك أحْضِر الطبعَ الجاهلَ مجالسَ التفكر ، فقد فهم حبيب العجمي وعظ الحسَن . يا مقيماً على الهوى وليس بمقيم ، يا مُبذِّراً في بضاعة العمر ، متى يُؤنسُ منك رشد . يا أكمه البصيرة ولا حيلة فيه لعيسى ، يا طويل الرُّقاد ولا نومَ أهل الكهف ، مالكَ تنفق عُمْرك مجازفة ، ومالكَ بالميزان قدرة ، إنَّ الموتَ لا يتفق بغتة ، أليس المرض يبغت ؟ ويحك قد بقي القليل ، فاستدرك زُبالة السراج . أما يزعجك صوت الحادي ، أما يؤلمك سوط السائق ؟

لهفي على غفــلات أيّــامٍ مضتْ عني وما لهفي براجع ما مضى

* * *

يا دائــــرة الشقــا أين أوّلُكِ يا أرضَ التيــه مــتى آخرُكِ

* * *

يا أيوبَ البلى كم على الكُناسة أمـــا حـــان حـــين أركضُ

خليليَّ ما أرجو من العيش بعد ما أرى حاجتي تُشرى ولا تُشترى إليا.

يا مُحْصراً عن الوصال لا في سفر الحج ، وضالاً عن الهدى لا يجزيه الهَدي . يا منقطعاً في سبيل السلك عن جملة الوفْد ، إذا احتبست في مرض الهوى بموت الطرد .

فتحامل إلى فناء خيمة أهل الوصال ، واشهدْ على وصيتك من المقبولين ﴿ ذوي عَدْلٍ ﴾ (١) . وناد بانكسار الذُّلِّ على حَسْرة الفوت ، أما ما وصَلْتم سالمين فبلِّغوا .

---

(١) سورة المائدة ، جزء من الآية : ١٠٦ .

الفصل الرابع والعشرون

في شماتة الأعداء وعداوة الشيطان

أعظم المصائب شماتة الأعداء وعداوة الشيطان قديمة من يوم ﴿ أبَـى واستَـكبر ﴾ (١) .

وحَسَدُ إبليس من يوم اتّجعل ، وفرحُ النظراء بلك أعظم الكل .

وما انتقم منك حاسد بأكثر من تفريطك ، ولا انتقمت منه بأعظم من تقويمك ، فالحظ كيف أبت نفسك الحظّ ، وانلتَ الحاسد المُراد ما يبلغ الأعداء من جاهل .

ويحك تصبّر عن الهوى تحمـد عواقب السّلامـة
فإنّ المرّ حين يسر حُلْوٌ وإنّ الحلو حين يضُرُّ مـرُّ
فخُذْ مُرّاً تُصادف عنه حُلوا ولا تعدل إلى حاوٍ يضرُّ

إياك والذنوب فلو لم يكن فيها إلا كراهة اللقّا كفى عقوبة . أطيب الأشياء عند يعقوب رؤيا يوسف وأصعبها عند أخوته لقاؤه .

إذا كان القلب نقياً ضج لحدوث المعصية ، فإذا تكررت مرّت عليه ولم يُنكر .

كانت الخطيئة عنده غريبة فاستوَحش فلما صارت بَلَديّ الطبع لم ينفر ، لابس الثوب الأسود لا يجزع من وقوع الحِبْرِ عليه ، يا جَرحاً الذنوب قد عرفتم المراهم .

إن لم تقدروا على أجرة نائحة فنكسوا رؤوس الندم فما يخفى صاحب المصيبة ، إن فاتكم عز معاذٍ ، فلا تعجزوا عن ذلّ الثلاثة الذين خُلِّفوا ، جدُّوا إن لم تعرفوا سبيل الوصول ، فلعل حيْرة الطالب توقعه على ماء مدين .

---

(١) سورة البقرة ، جزء من الآية : ٣٤ .

سيروا في بوادي الدجى وأنيخوا بوادي الذلّ في كسر الإنكسار ، وأصيحوا بأسْماع اليقظة لعل حُدَاة الواصلين تحرّك أطْراب القلوب لا بل ربّما عوّق السائرون لوصول المُنْقطع ، فكم قد صار في الرّعيل الأوّل مَنْ كان في الساقة ، لا تملُّوا الوقوف ولو طردتم ولا تقطعوا الاعتذار وإن رُددتم ، فإن فتح باب للواصلين دونكم فاهجموا هجوم الكدّائين ونكسوا رؤوس الفقر ، وابسطوا أكُفّ وتصدق علينا ، لعل هاتف القبول يقول : ﴿ لا تَثْريبَ عَلَيْكُم ﴾ (١) .

وإذا جئتم ثنيات اللوا فلجوا ربع الحمى في خطري
وصفوا شوقي إلى سُكّانه واذكروا ما عندكم من خبري
وحنيني نحو أيام مضت بالحمى لم أقضَ منها وطري
كلّما اشْتقتُ تمنيتكُمُ ضاعَ عُمْري بالمُنَى واعُمُري

الفصل الخامس والعشرون

الزهد في الدنيا طريق إلى الجنة

الجنة ترضى منك بالزهد ، والنار تندفع عنك بترك الذنب ، والمحبة لا تقنع إلا بالروح . إنَّ سلطانَ المحبّة لا يقبل الرشا ، أيها الطالب لي أخرج لي عنك ، قلبك ضعيف ، لا يفي بي وبك ، إما أنت وإمّا أنا ، افقد نفسك تجدني ، لما نسي الخليل نفسه قويت صولته . يومَ أمّا إليك فلا ما سلك قط طريقاً أطيب من تلك الفلاة التي دخلها عند انفصاله من رمي المنجنيق ، زيارة تسعى فيها أقدام الرضى على أرض الشوق ، شابهت ليلة فزجّني في النور ، فقال : ها أنت وربك زرناك شوقاً ولو أنَّ الفلا بسطت نشْز النلا بيننا جمرا لزرناك ، لاحت أوصاف الصانع في جمال الكمال ، فأشربت قلوبهم حبّه فصاح غلاء الثمن ، بدم المحب يباع وصلهم ، فأجاب عزم المحب ، وما غلت نظرة منكم بسفك دمي

(١) سورة يوسف ، جزء من الآية : ٩٢ .

قلبهم الحب في قفر الفقر على أكف البلى فتَقَطع أوداج الأغراض بسكين المسكنة ، والمحبوب يقول : أتصبرون والأرواح تجيب لا ضير .

شغلت نفسي وقلبي في مودتكم   لأخلص الله روحي من محبتكم
ها قد غضبت على نفسي لأجلكم   حتى جفوت حياتي بعد جفوتكم
إذا تلهب الشوق في كبـــدي   أطفأه ماء التلاقي يوم رؤيتكم

غاب القوم عن وجودهم ، شغلاً بموجودهم .

طرق طارق باب أبي يزيد وقال : ها هنا أبو يزيد فصاح : أبو يزيد أبو يزيد يطلب أبا يزيد فما يره ، لا يعرف رموز الأحباب إلا مجانس .

سل ليلى عن حال المجنون ، بَلَغت بهم المحبة إلى استحلاء إلا لام لعامهم أنها مراد الحبيب ، وكلما يفعل المحبوب محبوب .

لما طُعن حرام بن ملحان قال : فزت ورب الكعبة .فبي سود بن متعبه على فراشه فكان يقول : والله ما أحب أن الله نقصني منه قلامة ظفر ، تعجبوا من تمني القلب مؤلمه وما دروا أنه أحلى من العسل المحبوب محبوب وإن محذب .

استقرت جبال المحبة في أرض القلوب ، فلم تزعزعها عواصف البلى .

أمر الحجاج بصلب ماهان العابد فوق خشبة فصُلب وهو يُسبّح ويعقد حتى بلغ تسعاً وعشرين ، فبقي شهراً ويده على ذلك العقد : لتحشرن عظامي بعدما بليتْ يوم الحساب وفيها حبكم علِق .

إذا وقعت المعرفة في القلب سهل البلاء ، فإن مازجتها المحبة فلا أثر للبلاء لأن المحب سيتلذ إذا أكل أذى عذابه فيك عذب . وبعده فيك قرب . وأنت عندي كنفسي ، بل أنت عندي أحبُّ .

حسبي من الحب إني لما تحب محبٌّ .

مرّوا على مجذوم قد قطّعه الجذام ، فقالوا : لو تداويت ؟ فقال : لو قطعني إرباً إرباً ما ازددت له إلا حبّاً . واعجباً ما للعذول وما لهم قد رضي المقتول كل الرضى ، واعجباً لم سخط القاتل .

الفصل السادس والعشرون

في العلم والعمل

العلم والعمل توأمان ، أمـهُـما عـلُـوُّ الهمة . أيها الشاب ! جوهر نفسك بدراسة العلم وحلّها بحلية العمل ، فإن قبلت نصحي لم تصلح إلا لصدر سرير ، أو لذروة منبر ، مَن لم يعمل بعلمه لم يدر ما معه ، حامل المسك إذا كان مزكوماً فلا حظ له فيما حمل ، بحر قلب العالم يقذف إلى ساحل اللفظ جواهر النطق . فتلتقطها أكفُّ الفـهْـم ، تالله أن العالم لخاتم خنصر الدهر .

العلماء غرباء في الدنيا لكثرة الجهال بينهم ، تصنيف العالم ولدُه المخلد . العالم عـلَـم .

أيها المعلم ! تثبت على المبتدىء ، وقدر في السرد ، فالعالم رسوخ والمتعلم قلق .

ويا أيها الطالب تواضع في الطلب فإن التراب لما ذل لأخمص القدم صار طهور الوجـــد . لا تيـــأس مع مداومة الخير أن يقوى ضعفك فالرمل مع الزمان يستحجر .

صابرْ ليلَ البلاء فعين الصبر ترى فجر الأجر . ما يُدرك منصب بلا نصب .

ألا ترى إلى الشوك في جِواد الورد .

أيها المبتدىء تلطف بنفسك فمُداراة الجاهل صعبة ، تنقّل من درج الرُّخص إلى سطوح العزائم . وتيأس من نيل المراد فأول الغيث قطر ثم ينسكب . دُم على حضور المجلس فالطفل يحتاج كلّ ساعة إلى الرضاع ،

فإذا صار رجلاً صبر على الفطام ، على أن الماء إذا كثر صدمه الحجر أثّر .

يا عطاش الهوى في تيه القوى إنحرفوا إلى جادة العلم ، فكم من فيافي التعلم من عين تُعين على قطع البادية .

يا جبرة الحي هبوا من رقادكم ، فلي حديث له مع سمعكم شغل ، طريق الفضائل مشحونة بالبلاء ليرجع عنها مُخَنّث العزم ، إذا نزلت بالحازم بليّة فوجد مذاقها مرّاً أدار في الفكر حلو العواقب فنسخ ونسخ ما رسخ .

العاقل صابر للشدائد لعلمه بقرب الفرج ، والجاهل على الضد ، كما أن النار إذا اشتعلت في حطب الزيتون لم يُدخّن بخلاف السوس . إلا أن الطبع طفل والطفل بالغ وعاقبة الصبر الجميل جميله .

الفصل السابع والعشرون

في الدنيا

اخواني : الدنيا ملتقى الوداع ، فاصبروا لما مرّ منها فكان قد مر ، إحذروا شرها فقد سحرت سحرة بابل ، مكارهها في غضون الحبوب وأعقابه ، ما أمسى أحد منها في جَناح أمن إلا أصبح على قوادم خوف ، وكم سلبتك حبيباً وأنت على حبها أفيق أفق قد أفاق الراقدون وقد آن لدائك أن يلقى طبيباً يلائمه . فنيت عمرك في طلبها وما حصل بيدك إلا ما حصل بيد المجنون من ليلى .

صحا كل عذري الغرام من الهوى ، وأنت على حكم الصبابة نازل، تصحوا من المجلس من خمار الدنيا ساعة ، ثم تستبيك حميّا الكأس وليس في البرق اللامع مستمتع لمن يخوض الظُّلمة . كم أعطف عطفك بلجام العظة إلى عطفة اليقظة ، فإذا انقضى المجلس عاد الطبع ثاني عطفه وتأبى الطباع على الناقل . جسمك عندنا وقلبك غائب عنا ، عزمك في طلب الدنيا وتشتهي نيل الآخرة هواها وراها ، والسُّرى من أمامها ،

فهن صحيحات النواظر حوّل الدنيا مفازة لا تصلح للتوطن . إن البيدر إذا صُفّيَ حمل إلى دار الاقامة . واعجباً لمن أطال الوقوف على القنطرة حتى نسي اسم البلد .

ويحك كسب الدنيا لذيذ ، غير أن الحساب عليها شديد . ساعة الحمل لَعِب ، والجدّ في الولادة .

ثأر الشكر في مبدأ العقد مزاجٌ لمرارة الوضع . الدنيا كامرأة فاجرة لا تثبت مع زوج ، فلذلك عِيبَ طِلابها .

ميزتَ بين جمالهـا وفِعالها   فإذا الملاحة بالخيانة لا تفي
حلَفَتْ أن لا تخـون عهودنا   فكأنما حلَفت لنا أن لا تَفي

الدنيا قنطرة على بحر الهلاك . فخذ بالحزم في تعلم السِّباحة . قبل الجواز فما تأمن عثور قَدَم ولا عاصف قاصف.احذرها آمن ما تكون منها وانتظر حزنها أسرّ ما تكون بها .

إذا رأيتَ نُيوبَ الليثِ بارزةً   فلاتظننّ أنّ اللّيْثَ يبتسمُ

الدنيا دار ابتلاء تُشبه قصر مصر استْبقَ الباب فيها يوسف الصبر وزليخا الهوى ، وقمُصُ الأعمال تُعْرض على يعقوب الشفاعة ، فمن رأى قميصه ﴿ قُدّ منْ قُبُلٍ ﴾ [1] ، قال سُحقاً سُحقـاً ، ومن رآه قدْ ﴿ قُدّ منْ دُبُرٍ ﴾ [2] . قال ادّخرتُ شفاعتي ، فيامَن قد ألقاه الهوى في جُبِّ حُبِّ الدنيا استْيقظ فإن سيارة القَدر تبعث كل ليلة وارد هل من سائل .

فكن متيقظاً للوارد إذا أدلى دلواً لتخليص،وقم على قدم تتجافى ، وامدد أنامل ﴿ يَدْعُونَ ربّهُم ﴾ [3] . ﴿ والْقِ ما في يمينك ﴾ [4]

---

(١) سورة يوسف ، جزء من الآية : ٢٦ .
(٢) سورة يوسف ، جزء من الآية : ٢٧.
(٣) سورة الكهف ، جزء من الآية : ٢٨.
(٤) سورة طه ، الآية : ٦٩ .

لتتعجل الخروج ولا تتشبّت بأرجاء بئر الهوى ، فإنها رمل تنهار عليك فإذا تخلّصت بعزائم الإنابة فاحذر من الطريق المُسبعة ، وسِرْ في مصباح اليقين ، خلْفَ دليل الهدى فعند الصباح يحمد القوم السُّرى .

الفصل الثامن والعشرون

في أقوال الصحابة رضي الله عنهم

صاح بالصحابة واعظٌ ﴿ اقْتَرَبَ للنّاسِ حِسَابهُم ﴾ [(١)] ، فجزعت للخوف قلوب فَجَرَت للحزن عيون ، فسالت أودية بقدرها . رمى الصدّيق ماله حتى ثوبه على المُذكّر ، وتخلل بالعَبَا ، وقال عمر : ليتني كنتُ تِبنةً ، وقال عثمان : ليتني إذا مت لا أُبعث ، صاح عليٌّ بالدنيا : طلقتك ثلاثاً لا رجعة لي فيك ، وقد كانت تكفي واحدة لكنه أكّد كي لا يتصور الهوى جواز المراجعة ، وطبعه الكريم يأنف من المحلِّل .

وقال أبو الدرداء : ليتني كنت شجرةً تُعضد. وقال عمران بن حصين : ليتني كنتُ رماداً ، أنت تسمع القرآن لا كما سمعوه ، لم يسمعوا كما سمعتُ كلامها . أقدام العارفين على التعبد قد ألِفَتْ أقدامها الصفوف تعتمد على سنابك الخوف ، فإذا أثّر النصبُ راوحت بين أرجل الرّجاء إنقسم القوم عند الموت ، فبعضهم صابر هجير الخوف حتى انقضى نحبه كعُمر كان يقول عند الرحيل : « الويل لعمر إن لم يُغفر له ».

ومنهم من أقلقه عطش الحذر ، فتبرّد بماء الرجاء كبلال ، كانت زوجته عند الموت تقول : واكرّباه وهو يقول : واطرباه ! غداً نلقى الأحبّة محمداً وحزبه .

علم بلال أن الإمام لا ينسى المؤذن ، فمزج كرب الموت براحةالرجا ، بشرها دليلها وقالا غداً ترين الطلح والجبالا .

---

(١) سورة الأنبياء ، الآية : ١ .

قال سليمان التيمي لولده عند الموت : اقرأ عليّ أحاديث الرخص لألقى الله تعالى وأنا حسن الظن به . . إلى متى تتعب الرواحل ، لا بد من مُناخ .

رفقـاً بها يا أيهـا الزاجـر قد لاح سلعٌ وبـدا حاجـرُ
وخلّهـا تسحب أرسافهَا على الربـا لا راعهَا ذاعـر
واذكُر أحاديث ليـالي مـنى لا عُدم المذكور والذاكرُ

يا مُخنّثَ العزم أين أنت ، والطريق طريق نصت فيه آدم ، وناح لأجله نوح ، وأرمي في النار الخليل ، واضجع للذبح اسحاق ، وبيعَ يوسف بدراهم بخْسٍ ونُشر بالمناشر زكريا ، وذبح الحصور يحيى ، وضُني بالبلاء أيوب ، وزاد على القدر بكاء داود ، وتنغّص في الملك عيش سليمان ، وتحير بأرني موسى ، وهام مع الوحوش عيسى ، وعالج الفقر محمّد ﷺ .

فيا دارها بالخيْف إن مزارها قريب ولكن دون ذلك أهوال .

هذه الجادّة فأين السالك ، هذا قميص يوسف فأين يعقوب ، هذا طور سيناء ، فأين موسى . يا جُنَيْدُ احضر ، يا سِبْلي اسمع ، بدم المحب يُباع وصلُهُم من ذا الذي يبْتاع بالسعر .

الفصل التاسع والعشرون

قدرة الله سبحانه وتعالى تتجلى في صنع الكون

حُلَلُ الوجود متلوفة الأصباغ تجلي على عرائس الموجودات لتروق أي تعجب أعين العباد ، واعجبا لو دخلت بيت ملك لم تزل تعجب من نقوشه فارفع بصر التفكر ، واخفض عين البصيرة ، فهل رأيت أحسن من هذا الكون وهل لون أحسن من هذا اللون .

أخرج من ديار إدبارك ، واعبر من مَعْبر اعتبارك ، قِفْ في بقاع قاعٍ ، ترى كيف نمّت خضرة حضرته بأسرار الخالق إذا نمت تلمّح

أصناف النبات في ثياب الشّيات قد برزنَ في عيد الربيع تميس طرباً ، فَرحاً بالريّ تأمل مُخْتلف الألوان في الغُصن الواحد ، كيف صاغها صائغ القدرة ، تلمّح إشارتها كيف تُرشد الغافلين إلى صانعها ، وهم مشغولون في خصم مآكل الهوى . إسمع الوُرْق على الوَرَق لعل مقاطع السجوع توجب رجوع المقاطع .

ولقد أشكو فما أفْهِمْها ولقد تشكو فما تفهمني
غير أني بالجوى أعرفَهَا وهي أيضاً بالجوى تعرفني

واعجباً كيف تتفكر في الغير ، وتنسى نفسك . تأمّل بعين الفِكر نطفة مغموسة في دم الحيض ، ونقّاش القدرة يشقُّ سمعها وبصرها من غير مساس ، بينما هي ترفل في ثوب نطفة اكتست رداء عاقة ، ثم اكتست صفة مضغة ، ثم انقسمت إلى لحم وعظم فاستترت في يدي الأذى بوقاية جلْد ، ثم خرجت في صفة طفل ، ثم ارتقت مراقي الصبى ، فتدرّجت إلى نطاق النُّطق ، وتشبّثت بذيل الفهم ، فكم من صوت بين أرجل التنقل من تحريك جلاجل العبر في خلاخل الفكر ، كلما رنّتْ غنّت ألْسُنُ الهُدى في مغاني المعاني ، وكيف يطمع أن يسمع ذلك أطروش الشقوة ، هيهات ليس للمزكوم من الورد نصيب ، ولا للمسجون من العيد حظّ ، فإن كنت تعرف هذه العجائب ولا تتعجّب منها ، فتعجب من عدم تعجبك ، كيف عدمتَ التفكر مع آلات الفَهْم ، وأعميت بصيرتك بعد رؤية الحق ، فإن اعجب أفعال القدرة ، ولقد أضله الله على علم .

الفصل الثلاثون

في أن الله سبحانه وتعالى لطيف بعباده

لُطْفُ الحق بعبده قديم لما أظهر الولد أجرى له عين اللبن ، تغربل قَطْرها عيون الثدي ، وبذر في قلب الوالدين حبّ الحبّ حتى جدّا في اللطف جداً ، فلما عرف المُنْعم عليه المنعمة انفق النِّعم على العاصي .

وكم ليلة قد بات عرياناً من التقى وستر الحلم يغطيه ، وليته عرف ذلك . لحا الله من لا ينفع الودُّ عنده ، يا هذا لنا بك لُطْف يزيد على كل لطف ، إذا تُبت من الذنب أنسينا المَلك ما كتب ، وإذا حاسبناك سترناك كي لا يرى الخلق اصفرار لونك بالخجل .

يا طاهر الفطرة لا تتدنّس بأنجاس الزلل ، شمِّر أذيال التُّقى عن مزبلة الهوى ، واحذر رشاش الخطايا أن ينتضح على أثواب النظافة ، فإن قميص التكليف يحتاج إلى قوة التحرز ، فانظر بين يديك ، فإن زللتم ﴿ مِنْ بعْدِ ما جاءتْكُمُ البيِّنات ﴾ [1] . فعيون العيون تغسل أدران الذنوب . كانَ أول أمرك سليماً يوم واشهدهم على أنفسهم ، فاصلح آخر أمرك تُسامح في الوسط . يا طويل الغيبة عن وطن السْتَ أين حنين شوقاك .

نقّل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحب إلا للحبيب الأولِ
كم منزلٍ في الأرض يألفه الفتى وحنينه أبداً لأول منزلِ

* * *

يا معرضاً عنّا بمن تعوضت يا مُتلفتاً عنّا لماذا فرطت

* * *

ألا خبِّرونا أين زُمّت ركابكم وأين استقلّت هدجكم ومطاياكم

أنين المذنبين أحبُّ الينا من زحل المسبحين . المطيع يدل بالعمل والمذنب ذليلٌ بالزلل ، والمخطىء يحرك أوتار الوجل وينشد بتطريب الخجل ، من معيدٌ أيام ذي الأثل وما قلّ منها ديناً عليّ وقرضاً ساحاً بالقليل من أرض نجد ، ربما أقنع القليل وأرضى . واعجبا يستقرض المالك قطرة من الدمع وقد خلق سبعة الجر .

﴿ لَهُ مُلْكُ السّمَوات والأرْض ﴾ [2] . وقد بعث رسالة من ذا الذي

(١) سورة البقرة ، جزء من الآية : ٢٠٩ .
(٢) سورة البقرة ، جزء من الآية : ١٠٧ .

يُقرض الكبرياء رداؤه . وهو يقول : جعت فلم تُطعمني قطع أعناق الألسن أن تعترض بحسام لا يسأل ثم أقبل بانعام هل من سائلٍ [1] . ما يسعه مسكن ، ويسعه قلب من تمسكن .

غاب عن الأبصار ، وبدأ للبصائر ، واعجبا يتحبب اليك وهو عنك غني ، وتتمقت إليه وأنت اليه فقير ، إن تأخرت قربك ، وإن توانيت عاتبك ، ما آثر عليك من المخلوقات شيئاً وأنت تؤثر عليه كل شيء ، فنكس رأس الندم قبل العتاب فما لك عن هذا جواب ، صحائف عندي للعتاب طويتها ستنشر يوماً والحساب يطول .

الفصل الحادي والثلاثون

في الأعمال الصالحة

لما رأى الصالحون سطوة الدنيا بأهلها ، وتملّك الشيطان قياد النفوس لجأوا إلى حرم التضرع كما يأوي الصيد المذعور إلى الحرم ، فلو رأيتهم يمشون في ثياب التجايل ، عليهم قناع القناعة يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف ينامون ولا نوم الفرقى ، يأكلون ولا أكل الثّكلى تأكل يوم المصيبة ، ولكن هدم منهم الحزن أكثر من بناء الغذاء . لو كانت لك عين بصيرة عرَفْتَ القوم ، خطٌّ الولاية على وجه الولي ، قلمٌ هندي لا يعرفه إلا عالم به . تلمّح القوم بأعين البصائر العواقب ، ولم يروا عائقاً عن المطلوب سوى النفس ، فتلطفوا لقهرها بحيله لا يعرفها ابن هند ولا يعقلها ابن العاص .

فلما أسروها فتكوا بها ولا فتك ابن ملجم قلوب أسود في صدور رجال .

إنّك رأيتَ ذا العزم منهم ، رأيت لَيْثاً قد حُورب إذا همّ ألقى بين عينيه عزمه . هبّت زعازع الفكر فغلبت أرض القلوب ، فألقى فيها

(١) حديث قدسي .

بذر العزائم ، فسقنه حزن الحدَق ، فتبدت الأرواح في أغصان المعاملة ، فظهرت أزهارها إذا رأوا ذكر الله ففاح عبير النور من ذلك أطيب عرفاً من مسك فقويت بريحه نفوس المريدين .

لا يحصل خطير إلا بخطر ، فاخنس في حبسك يامُخَنَّث ألزم الريح في ركوب البحر ، الدُّرُّ في عقر اليمّ ، العلم في ترك النوم . الفخر في هجر النفس ، مَنْ يحب العزّ يدأب إليه ، فكذا من طلب الدرّ غاص عليه .

لولا التخلل بالعبا ما جاءت مدحة أنا عنك راض ، ولولا إرسال البراءة إلى الضرة طلّقتك ثلاثاً ، ما إشتاقت الجنة إلى علي ، لو قرُب الدر على جلاّبه ، ما لَجّج الغائص في طِلابه ، ولو أقام لزماً أصدافه ، لم تكن التيجان في حسابه ، ما لؤلؤ الحبر ولا مرجانه إلا وراء الهوْل من عبابه.

مَن يعشق العليا يلقَ عندهـــا ما لقيَ المحب من أحبابه

الفصل الثاني والثلاثون

في القدر

إذا أراد القدر نفْع شخص هيأ قلبه لقبول النصائح ، وساق إليه موعظة على فراغ الفكر سوْق المطر إلى الأرض الجرُز ﴿ فيخرجُ به زرعاً مختلفاً ألوانُه﴾[1] ، فإذا أعرض القدر عن شخص ألقاه في بحر من الغفلة لجيّ ، فكلما فتح عينه رأى ظلمات بعضها فوق بعض لحبائب السلامة مُهيأة للمراد ، وأقدام المطرود مُوثقة بقيود الغفلة . كم يتمنّى المردود أن يصل ، وهيهات يأبى القدر ، وكم محرم محروم صُدَّ من فيْد ، يقر لعيني أن أرى رملة الحما إذا ما بدت يوماً لعيني قلالها ، ولستُ وإن أحببتُ من يسكن الغضا بأول راج حاجة لا ينالها ، المخلوق هدف والمقادير بر سهام ، والرامي من تعلم فما الحيلة ، صوارم القدر إذا هُزّت تقلقلت رقاب المقربين ، غضب على قوم فلم تنفعهم الحسنات ، ورضي

(١) سورة الزمر ، الآية : ٢١ .

عن قوم فلم تضرهم السيئات . هبت عواصف الأقدار فخب بحر التكليف ، وتقلبت بيد الوجود بساكني الأكوان ، فانقلعت أطناب الأنساب ووقعت خيمُ المتكبرين ، فانقلب قصر قيصر ، وانكسر جيشُ كسرى ، وانبتّ حبْلُ صاحب تبّتْ ، وتبدد شمل أبي طالب ، ووهى عمل أبي جهل ، فلما طلع الفجر وركن البحر إذا أبو طالب غريق في لجة اليم ، وسلمان على ساحل السلامة ، والوليد بن المغيرة يقدم قومه في التيه ، وصهيب قد قدم من قافلة الروم ، وأبو جهل في رقدة المخالفة .وبلال ينادي الصلاة خير من النوم .

الفصل الثالث والثلاثون

الدنيا نهر طالوت

الدنيا نهر طالوت ، والفضائل والقضاء ينادي فمن شرب منه فليس مني ، فإذا قامت الفاقة مقام ابن مكتوم وقّع لها إلا من اغترف غرفة ، فأما أهل الغفلة فارتووا ، فلما قام حرب الهوى تبطّتهم البطنة فنادوا بألسنة العجز : لا طاقة لنا اليوم بجالوت .

وأقبل مضمّر الجسد فحاز قَصَبَ السّبْق بالظّفر ، الدنيا ظلٌ . إن عرضت عن ظلك لحقك ، وإن طلبته تقاصر ، إخدمي من خدمني واستخدمي من خدمك ، الزهد لا يلتفت إلى الظل فيتبعه الظل ، والحريص كلما التفت لم يره .

أيها الحريص على الدنيا : إلى كم تهيم في بيداء التحيُّر كالذي استهوته الشياطين لحرصك حدٌّ أم لا ملك منتهى .

ويحك إن البحر لا ينزف فاقنع بالرّيّ ، ويحك سير التواني سفر لا ينقطع ، هيهات أن يستغني من لا يكفيه ما يكفيه ، ويحك إن المفروح به هو المحزون عليه . لو فطِنت الدنيا خمر . كلما شرب منها الحريص زاد عطشه ، ادّرع من ثوب القناعة ما يشمل كل الأطراف ، فالقناعة

تدفع بالراحة في صدور الهمّ وتهدي الراحة إلى تعَب القلوب ، وكل الشرّ في الشره ، وكم من شارب شرق قبل الريّ . وإنما اللذة خناق من عسل .

وقع نحل على لينوفر فأعجبه ريحه ، واستلذ طعمه فأقام على ورقه المنتثر ، فلما جاء الليل ، تقبض الورق ، وغاض في الماء فهل بالنحل حرصك غيم ، وعقلك شمس والغيم يحجب الشمس فانظر بأي حجاب حرص يحجب شمس عقلك ، عن مشاهدة الآخرة ، فابعث شمال الغرم يمزق شمله ، عندك ما يكفيك ، وأنت تطلب ما يطفيك ، وشرب الماء على الريّ يورث الاستسقاء ، ما أمنعك من الدنيا ولكن الحمة قرين العسل ، ليس للحريص عيْش ، وأيُّ عيش لمن يصبح وما شبع ، ويمسي وما قنع تراه أحيْبَر من بقةٍ في حُقّه خلّف ما لا يساوي جناح بعوضة . إنما المراد من الدنيا ما يُصلح البدن ليسعى فيما خلق له ، فالاشتغال بالتزيد عائد بالنقص في المقصود .

إن جامع الأموال لغير البلاغ خازن للورثة ، فهو يحرق بنار الحرص ، وينتفع بريح جمعه غيره ، كانتفاع الناس بعرق العود المحترق . كم قتلت الدنيا قبلك ، كم أهلك حُبُّها مثلك .

كم بالمحصَّب مـــن عليلٍ هوىً طريـــح لا يعلَّـــلُ
ومن قتيـــل بـــين خيف منىً وجمـــعٍ ليس يُعقَــل

يا كنعان الأمل ، يا نمرود الحيَل ، يا ثعلبة البُخل ، يا نعيمان الزلل ، أنت في جمع المال شبه خاطب ، وفي تبذير العمر رفيق حاتم ، تمشي في الأمل على طريق أشعب ، فكيف بك إذا ندمت ندامة الكسعي ، وكم طالب أمراً وفيه حمامُهُ ، وسائرة تسعى إلى ما يضيرها .

القيت نفسك في جب حب الدنيا ، فمتى يخلصك واردُ الزهد ، فتسمع نغمات الفرح يا بشراي .

الفصل الرابع والثلاثون

في الطبع

يا جامداً على طبع وضعه تحرك إلى قصر التفكر يجرك إلى قلب طبعه ، انظر لماذا خلقت ، وما المراد منك ، رُضْ مهر النفس ، يتأتى ركوبه. أمت زئبق الطبع ، يمكن استعماله ، تلمح فجر الأجر يهن ظلام التكليف ، أرق خمر الهوى قبل أن يقع بك صاحب الشرطة ، فما يفلتك بحر طبعك أجاج ، وماء قلبك عذب ، والعقل بينهما قائم مقام الخضر ، فياموسى الطلب . لا تبرح عن السلوك ﴿ حتّى تبلُغَ مَجْمعَ البَحْرين ﴾ [1] . قِفْ على قدم الصبر وإن طال الوقوف ، تجلس على مقلوب كرسي ، يا نائماً طول الليل سارت الرفقة ، طلعت شمسُ التشيب ، وما انتبهت من الرّقدة ، لو قمت وقت السحر رأيت طريق العباد قد غصّ بالزّحام ، ولو وردت ماء مدين وجدتَ عليه أمّةً من الناس يسقون ، وأسحرة ليل القوم ما أضواها ، قاموا على أقدام التحيُّر . بين كنّ الحذر ، وشارع الشوق ، سترهم ذيل الليل تحت مخيم الظلام ، إن ناحوا فأشجى من متيم ، وإن ندبوا فأفصح من خنساء .

سقــوا بميــاه أعينهــم هناك الضال والرنــدا
بأنفاس كـــبرق في أنين يُشْبه الرعـــدا

لاحت لهم الجادّة فلما سلكوا قالوا : ﴿ ربُّنا الله ﴾ [2] ثم استقاموا .

هيهات منك غبار ذلك الموكب ، أملهم أقصر من فتر ومنازلهم أقفر من قبر ، أخبارهم أرقُّ من النسيم ، نومهم أعز من الوفاء . السهر عندهم أحلى من أغفاة الفجر . كلما افتتحوا سورة وجدوا بها يعقوب بقميص يوسف أُحْضُر وقت السحر مع القوم . حين تفريق الخلَعْ ، فإن لم تصلح أُسهم لك من نصيب ، وإذا حضر القسمة أولوا القربى ، لو

---

(١) سورة الكهف ، الآية : ٦٠ .
(٢) سورة الأحقاف ، جزء من الآية : ١٣ .

صعدت عن صدرك صعداء أنفاس الأسف لأثارت سحاباً يقطر من قطريه قطرُ العفو . لو أرسلت عبرة من جفن على جفاء أعادت نحس الزلل جُفا أبواب الملوك لا تطرق بالأيدي ولا تضرب بالحجر ، بل بنفس المحتاج ، وعُذْري اقراري بأن ليس لي عذر ، إذا سارت ركائب الأسحار ، فابعث معهم رسالة لهف يحتوي على حسرة محصر .

يا سائقَ العيس ترفّق واستمع مني وبلِّغ إن وصلت عني
عرِّض بذكري عندهم عساهم أن يسمعك سائلوك عني
قل ذلك المحبوس عن قصدكم معذب القلب بكل فنٍ
يقول أملت بأن أزوركم في جملة الوفد فخاب ظني

الفصل الخامس والثلاثون

في البقاء والفناء

يا طالبا للبقاء في غير معدنه ، يا مقدر النجاة في عقبة التلف ، بادر عمراً كل يوم يهدمه المعمار ، أليس أخر البقاء الفناء . كفى بالانتهاء قصراً ، ويحك أخرج بالزهد من هذا الفناء المحشو بالفَناء إلى حضرة القدس وأغراض النفس ، فهناك لا يتعذر مطلوب ، ولا يفقد محبوب ، يا هذا أعرفُ أدلتك بالطريق قلبك وأجهل الكل بالسبيل نفسك .

فسر على وفاق القلب ، لا على مراد النفس . هوى ناقتي خلفي وقدامي الهوى ، وإني وإياها لمختلفان ، يا دنيّ الهمة ، اركب مطايا الجد وإن طال السرى ، علامة التوفيق فصم عرى التواني ، وآية الخذلان مسامرة الأماني . الهوى يحرض على العاجل فلو لاحت من فارس النفس عزيمة أقدام اليقين ، ﴿ نَكَصَ الشيطانُ على عَقْبيه ﴾ [1] . يا محب الدنيا قيمتك محبوبك ، لو علت همتك لارتفعت عن الدنيا ، يا مدعي

(١) سورة الأنفال ، الآية : ٤٨ ، ونص الآية في القرآن هكذا : « نكص على عقبيه ».

مقام الخليل ما لكَ والحلسة، لاح لك من الهوى أقل شيء فأثرته علينا ، لقد كان دينار عملك مستوراً لولا صحتك ﴿ ولنبلونّكم ﴾ [1] ، وفي حالة السخط لا في الرضا ، يبين المحب من المبغض ، قلبك غائب في طلب الدنيا فقد ضاع الحديث معك ، إن الهدف إذا انهدم بطل النشاب ، قلعت سكر الهوى فرمت به باب القلب فلم يصل إليه سيل المواعظ ليس يحيك الملام في همم ، أقربها منك عنك أبعدها ، خرجت عن عمران التقوى ، فوقعت في فقر الزلل ، غرّك سراب الطمع ، فمتّ سريع الظمأ. انقرض العمر في محاق الغدر ، ومن العار رياضة الهَرِم ، كم قد عزمت على طاعة وتوبة ، ما لليلى الهوى ما تبصر توبة تبيت من الغرام في شعار أويس ، فإذا أصبحت أخذت طريق قيس ، تنقض عُرى العزائم عروة عروة ، وكل صريع بالهوى رفيق عروة كم دفنت كثيراً من الأعزة ، وهل يرجع كُثَيِّر عن حب عزّة .

جنونك مجنون ولست بواجد طبيباً يداوي من جنون جنوني

الفصل السادس والثلاثون

في معنى الباطن والظاهر

اصدق في باطنك ترى ما تحب في ظاهرك ، أرش سهم علمك بريش إخلاصك في مقصدك تصب هدف الأمل .

واعجباً ! قوسك مكسورة بالزلل ، ووتَرُك مقطوع بالكسل ، فكيف تنال صدر الغَرَض . إذا أردت العلو ، فارتق درجة التقوى . وإن شئت العز فضع جبهة التواضع ، وإن أثرت الرياسة فارفع قواعد الاخلاص . فوالله ما تحصل المناصب بالمنى ، فدينار التبهرج ، وإن نفق مردود ، وقد يتزيّا بالهوى غير أهله ، إذا نزلت عن مطيّة الإخلاص مشيت في حَسَكِ التعثير فتقطعت قدمُ القصد ولم ينقطع المنزل ، الرياء أصل النفاق . نفاق المنافقين صيّر المسجد مزبلة ، فقال المنزّه : لا تقم

(١) سورة البقرة ، جزء من الآية : ١٥٥ ، وسورة محمد صلى الله عليه وسلم ، الآية : ٣١ .

فيه ، وإخلاص المخلصين ، رفع قدْر الوسخ ، ربّ أشعث أغبر ، إذا هبت زعازع المنافقة ، لم تضر شجرة الإخلاص ، لأن أصلها ثابت ، فأما شجرة الرياء فعند نسيم وقدمنا إلى ما عملوا من عمل اجتثت من فوق الأرض لا تنظر إلى دولة الباطل ، وارتقب دولة الحق ، إذا رأيت منافقاً قد اتُّبع فتذكّر الدجال غداً ، والسامريّ بالأمس ، وانتظر للسامري لا مساس وللأ لد باب لد شجرة الصنوبر تثمر في ثلاثين سنة ، وشجرة الدّبا تصعد في أسبوعين فتدرك الصنوبر ، فتقول شجرة الدّبا : إن الطريق التي قطعني في ثلاثين سنة قد قطعتها في أسبوعين فيقال : لك شجرة ، ولي شجرة فتجيبها : مهلاً إلى أن تهب ريح الخريف ، وكم متشبه بالصالحين في تخشعه ولباسه ،وأفواه القلوب تنفر من طعم مذاقه :﴿ وهُمْ يحْسبونَ أنّهُم يحْسِنُونَ صنْعاً ﴾[1] .

في ظلمة الليل يتشبه الشجر بالرجال ، فإذا طلع الفجر بان الفرق ، في وقت الضحى يتمثل السراب بالماء فمن قرب منه لم يجده شيئاً .

واسفاً ما أكثر الزور ، أما الخيام فإنها كخيامهم ، تراهم كالنخل ، وما تدري ما الدخل أيها المراي قلب من ترائيه بيد من تعصيه ، لا تنقش على الدرهم الزائف اسم الملك فما كل سوداء تمرة ، ولا يتبهرج الشحم بالورم .

الفصل السابع والثلاثون

في مجلس الذكر

مجلس الذكر مأتم الأحزان هذا يبكي لذنوبه وهذا يندب لعيوبه ، وهذا على فوت مطلوبه ، وهذا لإعراض محبوبه .

يتشاكى الواجدون جوى ، واحداً والوجد ألوان ، أتدرون هذا التائب لِمَ أنَّ ، وهذا الحزين كيف حسن ، ذكر عهداً كان قد صفا

(١) سورة الكهف ، الآية : ١٠٤ .

تذكر فانزعج لحال حال فتغير ، منازل كنت تهواها وتألفها أيام أنت على الأيام منصور . مَن سمِع نَوْح الحَمام ظنّ أنه لحسن صوته غناء ، بل لما ذكر من ماضي العيش ، وإذا الغريب صبا إلى أوطانه شوقاً فمغناه إلى أحبابه إنما يبكي المذنب على ديار قد عمّرها بالتقوى كيف أخربتها، الذنوب إذا ذكرت نجداً وطيب ترابه وبرد حصاه أخر الليل حنّت تمنّت أحاليب الرعاء وخيمة بنجد ولم يُقض لها ما تمنيت .

يا مَن كان له معاملة فترك وارتاب ، يا مَن خلط الدُّستور وضرب على الحساب زمان الوصال يستحق البكاء ، أطلال الحبيب تستوجب القلق ماء النقيب ولو مقدار مضمضة .

شفاء قلبي وغير الماء يشفيني .

الوقت يقتضيك يا عاصي ، فبادر التوبة ، منادي الوصال على باب القبول يصيح وسارعوا .

الغيم رطب ينادي يا نائمين الصبوحُ
فقلت أهلاً وسهلاً ما دام في الجسم روحُ

يا مَن كان له قلب أين قلبك ، يا زمان الخيف هل من عودة .

إن كنت فقدت قلبك فلا تيأس من وجوده ، فقد يجمع الله الشتتين بعدما يُظنان كل الظن ألاّ تلاقيا .

سر في بوادي الطلب ، مستغيثاً بلسان الطرب ، ردوا عليّ لياليّ التي سلفَت ، لم أنْسَهُنّ وما بالعهد من قِدَم ، ودع طبعك لسفر التوبة ورافق شرعك في طريق الصحبة واجهد راحلتك لتلحق الرفقة،وتهيأ للاحرام قبل الوقفة وانفِذْ الوية الشوق إلى منى قبل نخله .

لعل رسالة الحب تصل من صاحب الكعبة ألا طال شوق الأبرار إلى لقائي .

الفصل الثامن والثلاثون

في صورة التعبُّد

لا تعجبوا بصورة التعبد وتلمحوا حسن المقصد ، ليس كل مصل متعبد ، ولا كل صائم بزاهد ولا كل باكٍ بخاشع ، ولا كل متصوف بصافي ، وما كل من أوى إلى العز ناله ودون العلى ضرب يدي النواصيا ليس كل مستدير يكون هلالاً . ليس التكحل في العينين كالكحل ، كم حول معروف من دفين ، ذهب اسمه كما بلي رسمه . ومعروف معروف ، وما كل دار أقفرت دارة الحمى ، ولا كل بيضاء الترائب زينب ، ذهب أهل التحقيق وبقيت بنيات الطريق .

واعجباً لقد رحل القوم ، وتخلف أهل السنّة والنوم خلت البقاع من الأحباب عندك خبَر .

كان المشايخ في قديم الزمان أصحاب قدم . والمريدون أرباب ألَم ، فذهب القدم والألم . كان المريد يسأل عن غصّة ، والشيخ يعرف القصّة واليوم لا قصة ولا غصة .

كان الصوفية قديماً يسخرون بالشيطان ، فصار الآن يسخر الشيطان بالقوم ، كان الزهد في بواطن القلوب فصار في ظواهر الثياب .

سلام على تلك الخلائق . إنها مسلمة من كل عيب ومأثم . ويحك صوّف قلبك لا جسمك ، واصلِح نيتك لا مُرقعتك .

إذا كان العلوي ثابت النسب لم يحتج إلى ضفيرتين ، إتحدوا وما لكَ بعير .

اتمد قوساً ما لها وتر ، تتجشّى من غير شبع . واعجباً من وَحْمى بلا حبل ، إن لم تكن يعقوب الأمل ، فلا تكن زليخا الهوى ، واأسفاً القلوب إذا بها حب الدنيا ، ولا سماع أمالها حديث خرافة ، يتلاعب بها الغرور في بحر الهوى تلاعب الموج بالغريق ، صحْ بالمنقطعين في بوادي الغفلة ، ترى أي ذنب اقتطعهم أين تعبُّد سري ، أين جدُّ الجنيد ، أين

مجاهدة أبي يزيد ، أين جوع الشبلي ، ياراضياً بصفة ابن أدهم ، أين عزائم ابراهيم ، أما الخيام فإنها كخيامهم ، انكسر مغْزل رابعة وبقي قطن الحلاج .

أيها الحادي بأحداج الجمـــالِ لا تُنخ بالربع إن الربع خــالي
ما عسى أن ترتجي مـــن دِمَنٍ أقفرت من أهلهـــا فهي خوالي
قد عفت أطلالهـــا واندرســت قف بنا نبكي لأطلالٍ بـــوالي
لهْفَ نفسي لليالٍ سلفــــــت آهُ هل ترجع لي تلك الليـــالي
لا تقل لي بمنى تعـــط المـــنى بمنى كان من القـــوم انفصالي

الفصل التاسع والثلاثون

الابتلاء بحب الدنيا

أيها المبتلي بحب الدنيا وما ينال منها إلا ما قُدِّر له كم مرزوقٍ لا يتعب ، وكم تعبٍ لا يرزق . هذا موسى يقول : أرني ، وما أُرىَ ، ومحمد يزعج عن مقامه وما طلب ، قضاها لغيري وابتلاني بحبها ، فياليته لما قضاها قضى له . يا هذا محبة الدنيا محنة ، عناء به مات المحبون من قبلي ، إن أقبلت شغلت وإن أدبرت قتلت . ويلاه إن نظرت واهي أعرضت ، وقع السهام ونزعهن أليم ، ويحك أن الفقر أصلح لك وإنّ فقْد الدنيا أرفق بك .

غير أن الهوى لا ينظر العواقب ، كم في طيّ مكروهك مصلحة .

لو زالت غشاوة العين أبصرتها ، سبحان من قضى على العاقل الكامل ، بمداراة الطبع الجاهل ، ناظر العقل إلى الأخير ناظر ، والطبع لا يرى إلا الحاضر ، كم يتعب الشيخ في تقويم الطفل . إنك لو فسحت لنفسك في هواها ضيّقت عليك طريق الخلاص ، إنها لتبذر بضاعة العمر بكف التمزيق ، كالخرقاء وجدت صوفاً .

يا مستغيثاً من الفقر بألسنة الشكوى ، حبس الفقر حصن على أنه داء الكرام .

الفقر جب ، والفاقة غَيَابه ، والشهوات رق والدنيا سجن المؤمن ، فيا يوسف الطلب ذق مرارة الجب ، وكمد الغيابة وصابر رق البيع ودارِ دار السجن لعلك تخرج إلى مملكة ، ﴿ اجْعلني على خزائن الأرْض ﴾ [(١)] . دافع ليل البلى فما أسرع فجر الأجر ﴿ ألَيْسَ الصُّبْحُ بقَريبٍ ﴾ [(٢)] الفقر من الدنيا عدم ، كله وجود . والغنى فيها وجود كله عدم ، عرضت على نبينا بطحاء مكة ﷺ ذهباً فأبى ، يا محمد ممن تعلّمت القناعة ، قال لسان حاله في عجلة أبي : كان الرجل من الصحابة يُدعى إلى المال حلالاً فيقول : لا ، لا ، يا معاشر الفقراء زينوا حلّة الفقر بحلية الكتمان ، فالفقراء الصُّبّر جُلساء الله ، اصبروا على عطش الفاقة فالمشرع قريب ، فالحرة تجوع ولا تأكل بثَديها ، إن سألتم فاسألوا مولاكم ، فإن سؤال العبد غير سيده تشنيع على السيد .

يا معاشر الغافلين والواقفين مع الأسباب إنما المعطي والمانع واحد ، فلا تجعلوا لله أنداداً . إذا عرضت حاجة فتعرضوا بالمحراب ، واكتفوا من السؤال بالخدمة . ﴿ فإنّا لا نُضيعُ أجْرَ مَنْ أحْسَنَ عَمَلا ﴾ [(٣)] أتشغلون بنا وننساكم ، كل من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أُعطي السائلين ، وإذا أطلبت إلى كريم حاجة فلقاؤه يكفيك والتسليم ، ويحك أن الفقير الصادق يترك أنفه الدنيا رآها مقاطعة فقاطع جاز على جيفة مستحلة فسدّ مخر الطرف وأسرع سلك سبيل القناعة ، فوقع على كنز ما وجده الاسكندر ، فقلبه أغنى من قارون وبيته أفرغ من فؤاد أم موسى .

ومن كان في ثوب القناعة رافلاً أصاب الغنى في الفقر والخصب في المُحل ، إذا حُشر الفقراء يوم القيامة بادروا باب الجنة فتقول لهم

---

(١) سورة يوسف ، الآية : ٥٥ .
(٢) سورة هود ، الآية : ٨١ .
(٣) سورة الكهف ، الآية : ٣٠ .

الملائكة قفوا فهذا يوم الحساب ، فينفضون أكمام الأدلال من يد المعوق. ويقولون : هل أعطيتمونا شيئاً تحاسبونا عليه . الصبر مثل اسمه في كل نائبة.

الفصل الأربعون

الانشغال بعمل الدنيا

يا مشغولاً بالعمل للدنيا والدنيا تعمل فيه ، تجمع ما يفرقك وتوصل ما يمزقك ، ويحك أتبني قصراً ، وتهدم مصراً ، إن لم تعرف عيوبها فاخْبُر تَقْلِه .

داء الآدمي الهوى ، وعلاجه الحسم متى ستفحل الداء فالكي أنفع وما يفيدك من جار السوء التوقي ، المال ماء كلما زاد غرّق . قنعت العنكبوت بزاوية البيت فسيق الحريص إليها وهو الذباب ، فصار قوتاً لها ، وصوّت بك نذير العبر ، رب ساع لقاعد ، ويحك طلق كواذب آمالك لتكون وارث مالك .

أعظم المغبونين حسرة من نفع كده لغيره . أفضل أعمال البخيل الصدقة لأنه يحارب شيطانين أصغرهما إبليس وأعظمها النفس وجنودها ، ومن يقوى بأسد الحرص ، وكلب الهوى ، وخنزير الشره . أُمدد يديك بالصدقة ، فإن لم تطق فاكففها عن الظلم ، أطلق لسانك بالذكر ، فإن لم تطق فاحبسه عن الغيبة ، كم يقف السائل سائل الدمع على باب الذل لديك ، فتقول : هذا كلام الجائع عند الشبعان . كله هذيان ، ويحك إن الصدقة صداق الجنّة فدع جمع الأكياس ﴿ مَنْ ذا الّذي يُقْرِضُ الله قَرْضاً حَسَناً ﴾ (١) .أنظر في أخلاق الفقير ، لا في أخلاقه ، وما ضر نصل السيف أخلاق غمده .

إن أعطيت فاحذر منا ، يتأذى به المعروف . ويحك كلما عاش أملك مات الفقراء كأنني كلما أصبحت أعتبه .

(١) سورة البقرة ، الآية : ٢٤٥ . وسورة الحديد ، الآية : ١١ .

أخُطُّ حرفاً على صفح من الماء .

واعجباً لمن يجمع الأموال جمع الثريّا نفسها ، كيف تأتي الأقدار فتفرقه تفريق بنات نعش . ياكدر القلب ، أثار كدر باطنك ، ما تخفي عن ناظرك ، إن أسرار القلوب تـُبيّن ما في وجوه الوجنات ، لو سمعتِ كلامي بقلبك كان طول الأسبوع نصبَ عينك ، وإنما تسمعه بأذنك وفرق بين السامعين ، كثُر المال على الصدّيق وثعلبة ، ووقع التفاوت بين البُخل والتّخلل ، وليس كل ذوات المخلب السبع .

أما حب الدنيا عندك فراسخ ، وأما قلبك فمنك على فراسخ ، وإذا غلب الهوى فمن ينتبه ، وإذا غاب القلب فمن يُحَدّث ، إذا كان قلبي مُوثقاً بحبالكم ، وجسمي لديكم كيف أفهم عنك ، فإن شئتموا أن تعذلوا فتوصلوا إلى أن يعود القلب ثم تكلموا .

الفصل الحادي والأربعون

في الحساب بعد الموت

يا جامد العين اليوم ، غداً تدنو الشمس إلى الرؤوس فتفتح أفواه مَسَامّ العرق فتبكي كل شعرة بعين ، كأنك بالسماء قد نفضت أكمامها لسرعة دورانها وانتثرت النجوم . وبيوسف الهيبة قد برز فقدّ قميص الكون نفخة فم الريح اليوم تحرّك الشجر من في الصُّور تعمل في الصُّور نفخة من الصور أماتت والأخرى أعاشت لا تعجبوا ، فإن نفخه نفخة الشتاء في صُور البَرْد ، أماتت صور الأشجار ، ونَفَس نفس الربيع أعاد الروح ريح . الدنيا بين ميثرة ولاقح .

وريح الصور تثير الأبدان ، وتلقح أشباح الأرواح لقراءة دفاتر الأعمال .

كان الفضيل ميتاً بالجهل ، وابن أدهم مقتولاً بالهوى ، والسبتي هالك بالمالك ، والشبلي من جند الجنيد ، فنُفخ في صور التوفيق ،

فانشقت عنهم قبور الغفلة ، فصاح اسرافيل الاعتبار ﴿ كَذَلِكَ يُحْيِي اللهُ الموْتى ﴾ [١] ، إنما سمع الفضيل آية ، فذلت نفسه واستكانت وهي كانت ، إنما زُجر ابن أدهم بموعظة واحدة هاتف عاتبه ، ولائم لامه ، أخرجه من بلخ إلى الشام ، كانت عـُقدة قلوبهم أُنشوطة ومَسَدُ قلبك كله عـُقَد ، قبلت المواعظ إلى نَدِيّ رياض القلوب ، فالتقى الماء إن كانت الأعمال تعرض عليهم فيرون الخيانة نقض عقد الزهد .

حلفتُ بدين الحب لا خنتُ عهدكمُ وتلك يمين لو عرفت غَموسُ

كان الفضيل بن عياض قد تعوّد البكاء . فكان يبكي في نومه حتى ينبِّه أهل داره .

وكان ابن أدهم من شدة خوفه يبول الدم ، وكذلك سري ، إذا خرجت القلوب بالتوبة من حَصْر الهوى إلى بيداء التفكر جرت خيول الدموع في جلباب الوجد . ﴿ كالمُرسلات عـُرْفاً ﴾ [٢] . إذا استقام زرع الفكر قامت العبرات تسقى ، ونهضت الزفرات تحصد ، ودارت رحى التحيُّر تطحن ، واضطرمت نيران القلق تنضج ، فحصلت للقلوب قلّة تتقوتها في سَفَر الحبّ ، سمعوا بحرمة الوفاء ، فما كل وقت يطلع سُهيْل . طال ما أمتم قلوبكم بالهوى فأحيوها اليوم بوابل العبرات . إذا خرجتم عن المجلس تذهبوا إلى البيوت ، واطلبوا هذه المساجد الخراب وضعوا وجوهكم على التراب ، واستغيثوا بألْسنة الفاقة من قلوب قد أحرقها الأسف على ضياع العمر في الهوى والبطالة فإنه إذا صعد نفسُ يعقوب بالحزن لم ينته دون جمال يوسف ، وإن شفائي عبرة مهراقة ، فهل عند رسم دارس من مـُعوّل .

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ٧٣ .

(٢) سورة المرسلات ، الآية : ١ .

الفصل الثاني والأربعون

في القناعة

يا مَن مطيّة عمره قد أنضاها الحرص ، هلاّ كففتها قليلاً بزمام القناعة ، فرب جد أعطب ، ورب أكلة تمنع أكلات ، وكثرة الماء شَرَق أو غَرَق ، أُخلُ بنفسك في بيت العزلة ، واستعن عليها بعذول اللوم. ونادها بلسان التوبيخ إلى كمْ وحتى ومتى ألم يأن يحك سرق لصّ الشيب رأس الشباب ، فهل لي اليوم إلا زفرة الندم .

يا نفس ذهَبَ عرش بلقيس ، وبليَ جمال شيرين ، وتمزق فَرَش بُوران ، وبقي نُسلك رابعة . وكانت أيام الشباب كفصل الربيع ، وساعاته كأيام التشريق ، والعيش فيه كيوم العيد فأقبل الشيب يعد بالفناء ، ويرعد بصفر الأنا فارضى مشدوداً أطناب العمر ونقض مشيّد مرائد التقوى .

أديل ضعف الشيب على الشباب ، فعمل معْول الوهن ورأى الجلد في الجلد ، فصار مَربع الحياة قَفْراً ، قد خلت بِطاحه ، ومرتع اللهو هباء تذروه الرياح ، وإن الهالك من ضل في آخر سفره وقد قارب المنزل أبقى بعد الشيب منزل بلى أنت تدري أين تنزل ، مرحلة الشيب تحط على شفير القبر ، وقد اتخذت من رأي الهوى حصناً ، فما هذا الأمل .

أتطلب ربيعاً وأنت في ذي القعدة ، اللذة سلاف لكن مزاجها زعاف ، الهوى عارٌ في العاجلة ، ونار في الآجلة . ومن تبصّر تصبّر .

أيظن الخائض في الدنيا له فراغاً عنها .

هيهات ما يفرغ منها إلا من أطّرحها ، فما قضى أحد منها لبانته ، ولا انتهى أرب إلا إلى أرب ، أيتوهّم المسوق بالتوبة أن لمرحلة الهوى آخر .

كلا ، إن الذي يقطعه عن الانانة اليوم معه في غد ، وما يزيده مرور الأيام إلا رسوخاً . بدليل وتشيُّب معه خصلتان . يطلب المرء أن ينال رضاه ، ورضاه في حاجة لا تُنال .

وإنما وجد الراحة في الدنيا من خلاّها لا من خالَلَها لاح لهم عيبها فما ضيعوا الزمان في السَّوْم ، بلّغتهم خطوات الرياضة إلى الرياضة ، فاستوطنوا فردوس الأنس في قُلّة طور الطلب . يا موثوراً على بساتين القوم ، مقابرَ النوم ليس في طريق الوصال تعب ، إنما التعب ما دام في النفس بقيّة من الهوى ، الظلمة لليل لا لليلى والله ما جئتكم زائراً إلا وجدت الأرض تطوى لي ، المنحفر ضالٌ عن الجادّة . طِرْ بجناح الخوف والرجاء من وكْر الكسل ، على خطٍّ مستقيم الجدّ ، لا تعْدل فيه عن العدل ، فإذا أنت مقعد صدق .

الفصل الثالث والأربعون

في صفة العارف بالله سبحانه وتعالى

وقت العارف جدّ كله لعلمه بشرف الزمان والنهار مطالب بحق الملك ، والليل يقضي دين الحب ، فلا وجه للراحة ، لما عاينتْ أبصار البصائر يوسف العواقب قطعت أيدي الهوى بسكين الشوق ، فولوج الجمل في سُم الخياط أسهل من دخول اللوم في تلك الأسماع .

فإذا حان حين الحين فرح سائر الليل بقطع المنزل ، وصاحت ألسنة الجد بالعاذلين . ﴿ فَذَٰلِكُنَّ الذي لُمْتُنَّني فيه ﴾ [1] .

قلوب أبت أن تعرف الصبر عنهم ، أثمان المعالي غالية ، فكيف يستامها مفلس ، وكيف يُنال المجد والجسم وادع ، وكيف يحاز الحمد والوفر وافر ، كلما تعاظمت الهمم ، تصاغرت الجثث ، ولست ترى الأجسام وهي ضئيلة ، نواحلَ إلا والنفوس كبار .

قال ليحيى بن معاذ لتكن الخلوة بيتك والمناجاة حديثك ، فإمّا أن تموت بدائك ، أو تصل إلى روائك ، لا تزل بي على العقيق وطَرِي أن قضيته أو نحيي ، لا رعيت السوام إن قلت للصحبة ، خِفّي عني

(١) سورة يوسف ، جزء من الآية : ٣٢ .

وللعين هبي ، وخلوا عن أبي بكر الشبلي وهو يركع ويسجد ، ودخلوا على الجنيد وهو في النزع فسلموا عليه فردّ السلام وقال : هذا وقت يؤخذ منه ، الله أكبر ، إذا اشتغل اللاهون عنك بشغلهم ، جعلت اشتغالي فيك يا منتهى شغلي ، فمن لي بأن ألقاك في كل ساعة ، ومن لي بأن ألقاك ياسيدي من لي . دارت قلوبهم من الخوف دوران الكرة تحت الصولجان ، فلعبت بها أكُفّ الأشجان في فلوات المحبة ، فمن بين سكران يبث ، وبين منبسط يقول ، وبين خائف يستجير .

إذا لعب الرجال بكل فن ، رأيت الحب يلعب بالرجال ، نجائب أبدانهم أنْضأ بالرياضة تجوهرت أرواحهم في بوتَقَة الجسم ، فترافقا في سفر الشوق ، فاللسان مشغول بالذكر . والسر مغلوب بالوجد ، والعين عبرى بالخوف ، والنفس هاربة إلى دار الزهد .

إنما أهرب مما حل بي منك إليك
أنت تطلب روحي قلت ها خذها إليكَ

كان الحسن كأنه حديث عهدٍ بمصيبته ، فكان يبكي حتى يُرحم .

وكان مالك بن دينار قد اسودّ طريق الدمع في خده ومن لبسُه مع غيره كيف حاله ، ومن سره في جفنه كيف يكتم .

كان عطاء السُّلمي يبكي في غرفة حتى تجري دموعه في الميزاب إلى الطريق فقطرت دموعه يوماً فصاح رجل : يا أهل الدار ماؤكم طاهر ، فقال عطاء : اغسله فإنه دمع من عصى الله تعالى .

كان داود عليه السلام يؤتى بالإناء ناقصاً فلا يشربه حتى يتمه بدموعه .

يا ساقيَ القوم إن دارت إليَّ فلا تمزج فإني بدمعي مازج كاسي

الفصل الرابع والأربعون

في التقوى باب الرزق

يا مفتحاً أبواب المعاش بغير مفتاح التقى كيف تُوسِّع طريق الخطايا وتشكو ضيق الرزق . لو اتّقيتَ ما عسر عليك مطلوب ، مفتاح التقوى يقع على كل باب ، ما دام المتقي على صفاء التقيُّ لا يلقى إذن أذى ، فإن انحرف عن التُّقى التقى بالكدر ، فلما توليتم علينا تولّينا .. لا تزال بحار النِّعم على الخلق في الزيادة . ﴿ حتّى يُغيِّروا ما بأَنْفُسهِم ﴾ [١] .

ويحك إنما خلت الدنيا لك ، أفيبخل عليك بما هو ملكك ، إنما في طبعك شره ، والحميّة أوفق . يا أعز المخلوقات علينا أرض بتدبيرنا ، فالمحب لا يتهم إنعامنا على ما خلق لك . لا يخفى عليك فكيف ننساك وأنت الأصل .

ليس العجب تغذي المولود في حال الحمل بدم الحيض لاتصاله بالحي ، إنما العجب أن البيضة إذا انفصلت من الدجاجة فمن البياض يخلق الفرخ وبالمح يتغذّى فقد أعطى المنخلق زاده قبل سفر الوجود ، إذا انفقأت بيضة الغراب خرج الفرخ أبيض فتنفر عنه الأمّ لمباينة لونها فيبقى مفتوح الفم ، والقدر يسوق إلى فيهِ الذباب فلا يزال يتغذّى به حتى يسودّ لونه فتعود الأمّ .

فانظروا إلى نائب اللطف ، وتلمّحوا شفقة طير الرحمة ألهم النملة إدخار القوت ، ثم ألهمها كسر الحبَّ قبل إدخاره كي لا ينبت ، والكسفرة وإن كسرت قطعتين تنبت فهي تكسرها أربعاً ،

وفي كلِّ شيء له آيــة تدل على أنه واحد

لو رأيت العنكبوت حين تبني بيتها لشاهدت صنعة تعجز المهندس ، إنما تطلب موضعين متقاربين بينهما فرجة يمكنها مد الخيط إليها ، ثم

---

(١) سورة الرعد ، الآية : ١١ .

تلقي لعابها على الجانبين فإذا أحكمت المعاقد ورتبت القمط كالسدّ اشتغلت باللحمة فيظن الظانّ أن نسجها عبث ، كلاّ إنها شبكة للبق والذباب وإنها إذا تمت النسج إنزوت إلى زاوية ترصد رصد الصائد ، فإذا وقع في الشبكة شيء قامت تجني ثمار كسبها ، فإذا أعجزها الصيد طلبت لنفسها زاوية ، ووصلت بين طرفيها بخط ، ثم علقت نفسها بخيط آخر ، وتنكست في الهواء تنتظر ذبابة تمر بها ، فإذا دنت منها رمت نفسها إليها فأخذتها واستعانت على قتلها بلف الخيط على رجليها ، أفتراها علمت هذه الصنعة بنفسها أو قرأتها على أبناء جنسها ؟ أفلا تنظر إلى حكمة من علمها وصنعت في فمها ، لقد نادت عجائب المخلوقات على نفسها ترشد الغافلين إلى باب الصانع . ﴿ غيرَ أنّهُم عَنِ السّمْعِ لمَعْزولونَ ﴾ (١) .

الفصل الخامس والأربعون
في المراحل التي يمر بها الخَلْقُ

خلقنا نتقلب في ستة أسفر إلى أن يستقر بالقوم المنزل .

السّفر الأول : سفر السُّلالة من الطين .

السفر الثاني : سفر النطفة من الظهر إلى البطن .

السفر الثالث : من البطن إلى الدنيا .

الرابع : من الدنيا إلى القبور .

الخامس : من القبور إلى العَرَض .

السادس : من العَرَض إلى منزل الإقامة ، فقد قطعنا نصف السفر ، وما بعد فَيَنْدٍ أصعب .

إخواني : السّنون مراحل والشهور فراسخ والأيام أميال والأنفاس خطوات . والطاعات رؤوس أموال ، والمعاصي قطّاع الطريق ، والربح

---

(١) سورة الشعراء ، الآية : ٢١٢ .

الجنّة ، والخسران النّار ، ولهذا الخطْب شمّر الصالحون عن سوق الجد في سوق المعاملة ، ودّعوا بالكليّة ملاذّ النفس ، كلما رأوا مركب الحياة يُخْطَفُ في بحر العمر ، شغلهم ما هم فيه عن عجائب البحر ، فما كان إلا قليل حتّى قدموا من السفر ، فاعتنقتهم الراحة في طريق التلقي فدخلوا بلد الوصل ، وقد حازوا ربح الدهر ، يا جبان العزم لو فتحت عينَ البصيرة فرأيت بإنسان الفكر ما نالوا لصاح لسان التلهف : ﴿يالَيتني كُنْتُ مَعَهُم﴾ [1] . وأين الأرض من صهوة السماء . لا أنت والله منهم ولا تدري مَنْ هُم .

يا قلبُ ما أنت من نجدٍ وساكنه	خلفت نجد وراء المدلج الساري
أهفو إلى الرمل تعلو لي ركائبهم	عند القدوم لقرب العهد بالدارِ
يا راكبان قِفا لي فاقضيا وطري	وخبّراني عن نجد بأخبارِ
هل روّضت قاعةُ الوعاء أو	مُطرت خميلةالطلح ذاتُالبانوالغارِ
أم هل أبيت وداري عند كاظمة	داري وسمّاري ذاك الحيسمّاري
فلم يزالا إلى أن نمّ بي نَفَسي	وحدّث الركبَ دمعيَ الجاري

ويحك في صناديق هذه الأيام أُودِعتْ بضائع القوم في هذه المزرعة المحلى ، بذروا حَبّ الحُبِّ ، فإذا حصدوا نادى بك هاتف اللوم في الصيف ، ضيعت اللبن ، كشفت عن عيونهم حُجُب الغفلة ، فنظروا بلا معاينة ، وخاطبوا بلا مشافهة تراه بالشوق عيني وهو محجوب ، انضوى رواحل الأيدان في سفر المحبة حتّى بلغوا مني المُنى قبل فوات الوقفة . ﴿تِلْكَ امّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ [2] .

بانوا وخُلِّفتُ أبكي في ديارهم	قل للديار سقاك الروائح الغادي
وقل لأظعانهم حييت من ظَعَن	وقل لواديهم حُيّيت من وادي

دخل رجل ناحل الجسم على عمر بن عبد العزيز فقال له : ما لكَ

(١) سورة النساء ، الآية : ٧٣ .
(٢) سورة البقرة ، الآية : ١٣٤ ، ١٤١ .

هكذا ؟ فقال : ذقت حلاوة الدنيا فرأيتها مرارة فأسهرت ليلي وأظمأتُ نهاري ، وذلك قليل في جنب ثواب الله وعقابه .

أسير الهوى من هواك في شغل شاغل ... تسربل ثوب الضّنا على بدنٍ ناحل

ذابت قلوبهم بنيران الخوف ، فأحرقت موطن الهوى ، واصفرّت الألوان لقوة الحذر ، فتنكست رؤوس الخجل .

فإذا أردت أن تعرف أحوالهم ... فاسمع حديث النفس من النفس
خُذي حديثَك في نفْسي من النفس ... وجْدُ المشوق المُعَنّى بغير ملتبسِ
الماء في ناظري والنار في كبدي ... إن شئتِ فاغترفي أو شئت فاقتبسي

الفصل السادس والأربعون
في صفة الأولياء

لما وقع الأولياء في ظُلمات الدنيا قطعوا بالجهاد مفاوز الهوى ، أضاءت لهم سُبل السّلامة فتعارف القوم في طريق الصحبة ، إن أضاء لهم برقُ الرجا مشوا فيه ، وإذا أظلم عليهم ليل الخوف قاموا ، فالقوم لا يخرجون من حيِّر الحيْرة ، لو رأيتموهم لتلتم مجانين ، إذا كنت خِلْواً فاعذر الصب في الهوى فما المبتلي والمستريح سواء إلا أن قلب الصب في يد غيره يُصرّفه في الحب كيف يشاء . اليك فلو ذقت الهوى لعذرتهم جفونك وسنا والفؤاد هباء .

كرب المحب بالنهار يشتد بمزاحمة رقباء المخالطة فبلبل بالدُّفي قفص كتمان حاله ، فإذا هبّت نسائم الأسحار وجدت روحه روْحاً يصل من قصْر مصر المنى إلى أرض كنعان الأمل ، فقام ركب الشوق يتجسس النسيم من فُرج الفَرَج وله ولد :

تَزَاوَرْنَ عن أذرعات يمينا ... نواشزُ لسنَ يُطعنَّ البرينا
كَلِفْنَ بنجدٍ كأنّ الرياض ... أخذنَ لنجد عليها يمينا

إذا جئتمـــا بانـــةَ الواديَيْـــنِ فارخـــوا النسوع وحلّوا الوضينا
فثمّ علائـــق مـــن أجلهـــا الدجى والضحى قد طَوَيْنـــا
وقد أنبأتهـــم مياه الجفـــون إنّ بقلبك داء دفينـــا

إخواني : نهار الحزين كالليل ، وليل المطرود كالنهار . يا أعمى عن طريق القوم ، أنا مشغول بإصلاح عيبك ، فإذا إستوت أرشدتك الطريق ، هذا أمر لا ينكشف للقلوب المظلمة . برينَ الهوى حتى يجلُوها صيقل المجاهدة ، أرض قلبك مشحونة بشوك الذنوب . فلو قد سلّمتها إلى الزارع ، رأيتها قد تغيرت ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غيرَ الأَرْضِ ﴾ (١) ويحك بين العجز والتواني نُتِجت الفاقة . كان القوم إذا سمعوا موعظة غرست لهم نخلــة العزائم ، ونباتُ قلبك عنـــد المواعظ نبات الكشوني .

واعجباً لمّن أصِفُ القوم أراني أتلو سورة يوسف على روبيل ، كم بين ثالثة الأثافي . وسادسة الأصابع ، يامطرود أما تشعر بالطرد .

إنما يجد وقع السياط مَن له حس بالله ، لو أقلقك الهجر ما سكنت دار الراحة .

أنت والكسل كندمانيْ جذيمة ، وليت صوت هذا الهاتف وصل إلى سمع القلب ، يالَه من عِتاب لو كان للمعاتب فهم . لقد نفخت لو كان فحم ، واسفاً مَرْعى ولا أكولة ، سُور تقواك كثير الثّلم ، والأعداء قد أحاطوا بالبلد ، صحّح نقده عملك ، فقد انقرضت أيام أسبوعك جوّد قبل الحساب انتقادك ، فلا مُسامح وقت الوزن ، ويحك قبل الرمي تراشُ السهام . وعند النطاح يُقلب الأجم ، ويحك قد دنا رحيلك ، وليس في مزود عملك تمرات تطفىء نار جوعك ، ولا في مزادتك قطرات تُسكّن وقْدَ هجيرك ، فالجدّ الجدّ في الاستظهار لطول الطريق عِش ولا تفتر .

---

(١) سورة ابراهيم ، الآية : ٤٨ .

يا منقطعاً في بادية الهوى عن الرفقاء ، ألحق أو أخّر الركب فالأمير يراعي الساقة .

سر من غير توقف ، ولو انقطعت أقدام الطلب ، فإذا أدركتك قائلة التعب أيها المنقطع في ظل حائط منقطع ، فصوت باستغاثة متحير . يا راهب الدير هل مرت بك الإبل ، يا حسرة من فاتوه وتخلّف ، يا أسف مَن لا ينفعه إن تأسف ، لعبت بوقته أيدي التواني فضاع فصمتْ عُرى عمره كفُّ المشيب ففات يعز عليَّ فراقي لكم وإن كان سهلاً عليكم يسيراً ، يا قوّام الليل اشفعوا في راقد ، يا أحياء القلوب ترحموا على ميّت ، يا سفراء الطلب أحملوا رسالة مُحصر .

خذوا نظرة مني فلاقوا بها الحمى ، يا رفقة من أرض بُصرى تحملت تؤمُّ الحمى لُقِّيت من رفقة رشداً . إذا ما بلغتم سالمين فبلغوا تحية من قد ظنّ أن لا يرى نجد .

الفصل السابع والأربعون

في العناية

إخواني : العناية غنى الأبد . لمّا سبق الاختيار في القِدَم للطين المنهبط ، صعد على النار المرتفعة فعامت جهنم أن المخلوق منها . لمّا قاوم التراب كانت الغلبة للتراب ، وكفاها ما جرى عبرة ، والسعيد من وُعظ بغيره ، فإذا مرّ المؤمن عليها أسلَمَت من غير جدال ، جُزْ يا مؤمن فقد أطفأ نورك لهبي مصابيح القلوب الطاهرة ، في أصل الفطرة منيرة قبل الشرائع كقلب قس ﴿ يَكَادُ زيتُها يُضيء ولَوْ لَمْ تَمْسَسْه نارٌ ﴾ (١) لاح مصباح الهدى من سُجُف دار الخيزران ، فإذا عُمَرُ على الباب ، ولما عميتْ بصيرة إبليس صار نهار الهدى عنده ليلاً . كان في عين بصيرته سبَل ، فما نفعه إيضاح السُّبُل .

(١) سورة النور ، الآية : ٣٥ .

رجع الخُفّاش إلى عشه ، فقال لأهله : أوكروا فقد جنّ الليل ، فقالوا : الآن طلعت الشمس وأنت تقول جنّ الليل ، فقال : ارحموا من طلوع الشمس عنده ليل ، لما أضاءت أنوار النبوة رآها عينُ بلال الحبشي وعَمِيت عنها عين أبي طالب القرشي .

إخواني : إحذروا نِبال القدرة ، وهيهات لا ينفع الحذَر ، فإن صلح شيء من باب الكسب فاللّجوء إلى باب الورع . أعوذ بك منك أين القلق والقلوب بين أصبعين .

إن القضاة إذا ما خوصموا غلبوا ، كان إبليس كالبلدة العامرة بالعبادة ، فوقعت فيها عاصفة الشقاء فهلك أهلها ، فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا من لم يكون للوصال أهلاً فكل إحسانه ذنوب ، أُخِذَ كساء ترهّبه فجُعل جلاّء لكلب أهل الكهف ، فأخذ المسكين في عداوة الأدمي ، فكم بالغ واجتهد ، وأبى الله أن يقع في البئر إلا من حفر .

ويحك ما ذنب الأدمي وأنت جنيت على نفسك ، ولكنه غيْظُ الأسير على القِدّ ، إنما هلك إبليس بِكبْر ﴿ أنَا خَيْرٌ مِنْه ﴾ (١) ، وسَلِمَ آدمُ بذُلّ ظلمنا أنفسنا ، ومقام العبودية لا يحتمل إلا الذل كلما راعني بعزّ الموالي جئته خاضعاً بذلّ العبيد . المسكين إبليس ظنّ أنه قد حاز بامتناعه عن السجود عزاً فوقع في ذُلّ ﴿ وإنَّ عليْك لَعْنَتي ﴾ (٢) كأنه فرّ من المطر إلى الميزاب .

كانت خِلعة العبادة لا تليق به ، فنزعت عنه . ألا ربّ جيد لا يليق به العِقد . كان أعمى الفهم فما لاقت به حليَة التعبُّد ، وكان آدم غريباً فما حسنت عليه قَلَنْسوة الخلاف ، أخرجهما قَسْر القدَر لبيان ملك التصرف ، ثم ردّ كلٌّ إلى معدنه . إن الأصول عليها تنبت الشجر .

ولقي إبليس عمر بن الخطاب فصرعه عمر ، فقال بلسان الحال : يا عمر أنا المقتول بسيف الخذلان قبلك بي اليأس أدوا الهُيام كربته

---

(١) سورة ص ، الآية : ٧٦ .
(٢) سورة ص ، الآية : ٧٨ .

فإياك عني لا يكن بلك ما بيَ ، يا عمر أنت الذي كنت في زمان الخطاب ، لا تعرف طريق الباب ، وأنا الذي كنت في سدّة السيادة وأتباعي الملائكة فوصل منشور لا يسأل ، فعزلني وولاّك ، فكن على حذر من تغيُّر الحال ، فإن الحُسام الصقيل الذي قُتِلْت به في يد القاتل ، فلما لَعبت أيدي القلق بعمر ، بادر طريق باب البريد بالعزل والولاية ، يا حذيفة ، يا حذيفة ! أنا منهم .

الفصل الثامن والأربعون

في طهارة النفس

المؤمن على طهارة اليوم من يوم ﴿ أَلَسْتُ بربِّكُم ﴾ [١] . غير أنه لما خالطه أوساخ الهوى تدنست ثياب معاملته ، وليس لها تنظيف إلا بماء العلم في بيت العزلة . العزلة رأس الحميّة عن الدنيا ، تخيط عين باز الهوى ، فيألف العِظام عن الطيران ، والعزلة صحراء خالية عن بقاع ، يا سرعة أبصار الهلال فيها لذي بصر .

قلّ غَرسُ خلوةٍ إلا وعليها ثمرة الأنس .

أيها المبتدىء عليك بالعزلة ، فإنها أصل العمل ، تضمُّ شتات قلبك وتحفظ ما لفقت من خصال يقظتك ، فإنّ حالك كمرقّعةٍ بالية ، إن تحركت فيها تمزّقَتْ ، إذا جرى القَدر باجتماعِ العقل واليقّين في بيت الفكر أخذ في توبيخ الأمّارة ، فإن كان زمنُ المرض قد انقضى أثّرَ اللوم ثوران العزيمة إلى قطع القواطع ، فحينئذ تكتب النفس بكفِّ الهجر طلاق الهوى وتتجلبب زرْمانقة الزهد وتترهب في دير العُزوق ، فتستوحش من أهل الدنيا شُغْلاً بصحبة أنا جليس من ذكرني ، يا مَن قد ضاع يوسف قلبه جُزْ بخيم القوم ، لعلك تجد ريح يوسف ، قف في السحر على أقدام الذلِّ وقل : ﴿ يا أيُّها العَزيزُ مَسّنا وأهْلَنا الضّرُّ ﴾ [٢] .

(١) سورة الأعراف ، جزء من الآية : ١٧٢ .
(٢) سورة يوسف ، جزء من الآية : ٨٨ .

يا مخذول التّواني ، يا مخدوع الأماني ، غرق مركب عمرك ، في بحر الكسل ، ويحك من لازم المنام لم يرَ إلاّ الأحلام ، متى تفتح عين عزمك ، فياطول هذا الكرى ، أما تستنشق ريح السحر ، أما تجد برد هواء الفجر ، أما تعاين ضوء الشيب ، أما يؤلمك عتاب الدهر :

تنبّهي يا عذَباتِ الرّنْدِ ... كم ذا الكرى هبّ نسيم نجدِ
أعلِّل القلب ببان رامةٍ ... وما ينوب غصنٌ عن قدِّ
واقتضى النّوح حمامات اللوى ... هيهات ما عند اللوى ما عندي

رحل ركْبُ المحبة على أكوار العزائم ، فصبّحوا منزل الوصل ، وأنت نائمٌ بعد .

يا عُمَرَ العزم إلى كم في دار الخيزران ، يا فُضيل المحبة ، متى تكسر سيف الفضول ، يا ابن أدهم الجدّ دخلت شهور الحج ، فما قعودك ببلخ . هل لك بالنازلين أرض منى ، يا علَمَ الشوقِ بعدنا علِمْ إذا وقعت عزيمة الإنابة في قاب من سبقت له الحسنى ، قلعت قواعد الهوى من مشناة الأمل .

ركب ابراهيم يوماً للصيد ، وقد نُصب له فخٌّ ﴿ يهْديهم ربّهُم ﴾ (١) حوله حَبٌّ بحبهم ، فصيدَ قبل أن يصيد .

عَبّر ترجُمان الزواجر عن لغة سبَقت لهم فقال : ما لهذا خُلقتَ ولا بهذا أُمرتُ ، وافق الطبيب وقت انقضاء المرض فسقاه دواء مفرداً فَنَفض به فالخ الهوى ، رماه بهم مواعظ ، ألقته عن قربوسه وبؤسه .

لاحت نار الهدى ، فصاح في جنود الهوى : ﴿ إنّي آنَسْتُ ناراً ﴾ (٢) فتجلى له أنيس تجدني فاستحضره ، فغاب عن وجوده ، فلما أفاق من صعقه وجده ، وقد دكّ طور نفسه صاح لسان الانابة بعبارة الإجابة

---

(١) سورة يونس ، جزء من الآية : ٩ .

(٢) سورة طه ، الآية : ١٠ ، سورة النمل ، الآية : ٧ . وسورة القصص ،الآية : ٦٩ .

تبت اليك ، فلما خرج عن ديار الغفلة ، وماءت اليقظة إلى الهوى ، سلام على اللذات واللهو والصبا ، سلام وداع لا سلام قدوم .

يا ابن أدهم لو عدت إلى قصرك فتعبدت فيه ، قال العزم : كلاّ ليس للمبتوتة نفقة ولا سكنى .

أحنُّ إلى الرمل اليماني صبابة وهذا لعمري لو رضيت كثيبُ
لو أن ما بي بالحصى فلق الحصى وبالريح لم يسمع لهنّ هبوبُ

هام في بيداء وجده ، فاستراح من عدوه . مرضتّه التُّخم فاستلذّ طعْم طعام الجوع وحمّل جِلْدَه على ضعف جَلَده خُشونة الصوف ، ظَفِرتم بكتمان اللسان فمنْ لكم بكتمان عين دمعها الدهر بذرف حملتم جبال الحب فوقي إنني لأعجز عن حمل القميص واضعف ، لاح له جمال الآخرة من خلال سُجُف ﴿ لَنَهْدِيَنَّهُم ﴾ [1] ، فتمكن الحبُّ من حبة القلب فقام يسعى في جمع المهر من كسب الفقر . طال عليه انتظار اللقا فصار ناطور البساتين تَقَاضتْه المحبة بباقي دينها فسلّم الرُّوح في الغربة ، هذا ثمنُ المحبة فتأخّر يا مفلس .

الفصل التاسع والأربعون

إخواني : في الأعداء كثرة ﴿ فأعِدُّوا لهُم ما اسْتَطَعْتُم من قُوَّةٍ ﴾ [2] . قاتلوا بسلاح العزائم حتى لا تكون فتنة ، فمتى حمل عليهم فارس جدّ غُلِبوا هنالك ﴿ وانْقَلبُوا صاغرينَ ﴾ [3] .

إخواني : من تلمّح حلاوة العواقب ، نسي مرارة الصبر .

الغاية أول في التقدير آخر في الوجود .

---

(١) سورة العنكبوت ، جزء من الآية : ٦٩ .
(٢) سورة الأنفال ، الآية : ٦٠ .
(٣) سورة الأعراف ، الآية : ١١٩ .

مبداءً في نظر العقل مَنْتهىً في منازل الوصول .

إخواني : عايكم بطلب الجنّة فإن النار وسط الكف ، شهوات الدنيا مصائد تقطع عن الوصول ، فإذا بطلت الشهوات بحلول الموت أحس الهالك بما لم يكن يدري ، كما إن خوف المبارز يشغله عن ألم الجراح ، فإذا عاد إلى الماء من زاد الألم فإذا ماتوا انتبهوا ، إذا شيعتم الجنازة فقد سمعتم نذيراً بلا صوت ، كم شيعتم قريباً ورميتموه سليباً ، وتركتموه غريباً ، واسمعكم من الوعظ عجيباً ، ﴿ ثمّ قَسَتْ قُلُوبَكُم ﴾ [1] . من ذلك . تالله إن الزاد لَطَفيف ، وأنّ المزاد لخفيف ، مع أن الأمر جدّ والخَطْبَ أدّ ، إن الحازم لا يترك الحذر حتى يصل المأمن .

لما اعترض إبليسُ لأحمد قال : فُتّني . قال : لا بعد لا فرح بوصول الكوفة . وما عبَرْت العقبة ، الطمع مركب التلف ، والحزم مطيّة النجح ، والتّواني أبو الفاقة ، والبطالة أمُّ الخُسران وما يحصل بردُ العيش إلا بحرِّ التعب ، ما العز إلا تحت ثوب الكدّ .

إخواني : ذهب والله في التفريط العمر . نحفل الوصيُّ فضيّع مال الطفل .

مصيبتنا في التفريط واحدة ، وكلُّ غريب للغريب نسيب .

رحل ركب المحبة في ظلام الدجى ، فصبّح القوم المنزل ، ونحن على غير الطريق .

وآاسفاً من قلة الأسف ، واحزناه على عدم الحزن ، قفوا على آثار السالكين ، فاندبوا المنقطع ، ليست بإطلالي ، ولكنها رسوم أحبابي فنوحوا معي يا سالكاً بالبلد البلقعي ، ويا ديار الظاعنين اسمعي ، ياديارَ الأحباب أين سكانك ، يا مرابع الأحباب أين قطانك ، ها إنها منازل تعودت مني إذا صادفتها التسليما ، يا نَفحة الشّمال من تلقائها ، ردّي عليّ ذلك النسيما . يا متخلفاً ما جاء مع المعتذرين ، رحل الركب في

(١) سورة البقرة ، جزء من الآية : ٧٤ .

رمان رقادك ، فإذا قمت من الكرى فأقم مأتم الندب ، قِفْ على الرسوم وابك على انقطاعك لعل تونس رفيق ، تجدني .

إذا جُزتَ بالغوْر عرِّج يميناً ... فقد أخذ الشـوق منا يمينا
وسلِّم على بانةِ الواديين ... فإن سمعت أوشكت أن تُبينا
فصحْ في مغانيهم أين هم ... وهيهات أمُّوا طريقاً شطونا
وروِّ ثَرى أرضهم بالدموع ... وخلِّ الضلوع على ما طوينا
أراك يشوقك وادي الأراك ... اللدار تبكي أم الساكنينا
سقا الله من بعنا بالحما ... وإن كان أورث داء دفينا

الفصل الخمسون

في المشاورة

إذا قمتم من المجلس فادخلوا دار الخلوة ساعة وشاوروا نصيح الفكر ، وحاسبوا شريك الخيانة وتلمحوا تفريط الكسل في بضاعة القمر ، تأسفوا على كل ذنب كان أو حظ من الله فات . البدار البدار نحو البقية ، فيكفي المفرط ما ضاع وليحذر الأعور الحجر ، لا تحتقر يسير الخير ، فالذود إلى الذود إبل ضلت .

قلوبكم في بوادي الهوى فقوموا على الطلب ، وألقوا أزمة السير إلى حادي الأسف ﴿ وتَحَسَّسُوا منْ يوسُفَ وأخيهِ ﴾ [1] . جدّ في نشدان ضالتك ، ﴿ ولاَ تَيْأَسُوا منْ روْحِ اللهِ ﴾ [2] . فكم شفي من أشفى .

عرجوا بالرفاق نحو الركب ... وقفوا وقفة لأنشد قلبي
وخذوا إليَّ من النقيب لماظاً ... أوردوا بي إلى العُذيب وصبي

(١) سورة يوسف ، الآية : ٨٧ .
(٢) سورة يوسف ، الآية : ٨٧ .

فهبوب الريـــاح من أرض نجـــد فوت قلبي وحبّذا من مهبّي
يا نسيمَ الصَّبا ترنّم عـــلى الرو ح بصوت يـُشجي وإن طار لُبّـي
من معيـــد أيامنـــا بلـــوى الجز ع وهيهات أين مـــني صحبي

واعجباً ما أنظر الأجساد ولكن فُقد نظر القلوب إذا لم يحركك الربيع وأزهاره والسماع وأوتاره فمن أنت ويحك نوح الحمام غزل .

لو كان في قلبك محبة فابكِ بكاء الجنيد ، لعل تقع بسرِّ سَريّ . بِـعْ مال الهوى فيمن يزيد . إن شئت لحاق أبي يزيد ، كم دعتك فرصةٌ لو كنت أجبتها ، إن جناب الباب لفسيح ، غير أن الجهل مطرود ، ويحك قد لاحت نار الهوى ، من زناد المواعظ فقم على أقدام الجد تجد النار هدى لأيّ مرمىً تزجو الأيانقا ، إن جاوزت نجداً فلست عاشقاً وإنما كان بكائي حادياً ، ركب الغرام وزفيري سائقا .

واعجباً من الواقفين على مواقف إن وفّقنا ثم لا يتعرضون بجناب التوفيق ، إن يريدون إلاّ فِراراً ، ويحك دنت عساكر البطالة ، ﴿ فانفروا خِفَافاً وثِقالا ﴾ (١) ، خذوا من الدنيا قدر ما يعبرُ القنطرة ، ولعمري أنّ ضرورات المعاش تغيّر وجه المراد فيتعثر السالك ، ﴿ ومَن يتّقِ الله يَجعْل له مَخْرجا ﴾ (٢) ، يا هذا إن جرى القدر بمحبوب فخير أو مكروه فلا يكن في صدرك حرج منه . دليل محبته لك في الأزل ، حرسة توحيده عندك والتخويف سوط يسوق النفس عن ديار الكسل ، وما تظنه تعذيب تهذيب ، وربّ تقويم بالكسر تخريق ، مكان الجيب من القميص جعله قميصاً ، لو لم تذنبوا ، صولة الوالد تحفظ أصل الأدب وإن كان الحب في السويدا .

بكت العيـــون وأنت مطرفها وشكى الفؤاد وأنت محرقه
وتقادم عهـــده فصفـــا وجديد ودٍّ ليس يخلقـــه

---

(١) سورة التوبة ، الآية : ٤١ .
(٢) سورة الطلاق ، الآية : ٢ .

لما ذاق آدم وحواء من الشجرة دارا في دائرة التحيُّر ، فضربهما صولجان البعد فهبطا ، وضارب الكرة يسعى بنفسه في طلبها ، ﴿هل من سائل﴾ [1] ، فلولا البعد ما حمد التواني ، ولولا البين ما طاب التلاقي .

يا قائماً في سوق الأرباح ماذا حصّلْتَ ، يا منقطعاً في طريق الوصال هلاّ توصلت . أتراك اشتغلت بنا أو عنّا .

يا منكر يا نكير إنزلا إلى الخارج من بساتين الأرباح في دار المعاملة ، فانظرا هل استصحب شوكة من الشك ، أو وردة من اليقين استْنكهها فمه الذي قال : بلى يوم السْت هل غيّر طيبة طول رقاد الغفلة ، هل أنجاس زلله مما يدخل قليلها تحت العفو .

هل تمدُ ماء توحيده في قليب قلبه يبلغ قلتين . أنا مقيم له على الوفاء بكل حال ، فانظرا هل حال .

ألا حبّذا نجــدٌ وطيبُ ترابــه	وأرواحه إن كان نجدٌ على العهد
ألا ليت شعري عن عوارضَي قبا	بطول اللّيالي هل تغيّرنا بعدي
وعن علويات الرياح إذا جرَتْ	بريح الخُزامى هل تمرٌّ على نجد

الفصل الحادي والخمسون

في التزوّد قبل الرحيل من الدنيا

من تفكر في قرب رحيله تشاغل بالتزود ، ولبئس ما صنع بائع نفسه النفيسة بالأعراض الخسيسة ، إن الروح في ذاته جوهر لا يتجزأ ولا يموت ، وقدره جوهر لا قمت له ، وإنما آلات البدن خادم له تعين على السفر . له في زجاجة القلب نار كالسراج ، الحياة ضؤوها والدم دهنها والحركة نورها ، والشهوة حرارتها ، والغضب دخانها .

وقد اتخذ من مقدم الدماغ حارساً ، ومن وسطه وزيراً ، ومن مؤخّره

(١) حديث قدسي .

حافظاً ، وجعل العقل أستاذاً ، والحس تلميذاً ، وفرّق الأعضاء في خدمته رجالاً وركباناً ، وجعل الدنيا له ميداناً يجول فيه في صف حربه لمحاربة أعدائه .

فإن غلب قهر كسرى ، وإن غلب فلا أحد قهر ، لما يتّعظ الأولياء لهذا السفر ، خاضوا في ظلمات الطبع يقطعونها بأقدام المجاهدة ، فلاح لهم نور الغيب ، ﴿ كُلَّما أضاء لهُم مَشَوْا فيه ﴾[1] ، فإذا هم على باب الوصول ، الفقر حليتهم ، والليل لذتهم ، والخشوع صفتهم . طال حبسهم في الدنيا فضجوا إلى الحبيب فلو انتبهت بالليل ، سمعت أصوات أهل الحبوس ، يا وقوفاً ما وقفنا في ظلال السّلمات نتشاكى ما عنانا بكلا العبرات أطيار الأشجان في أقفاص الأسرار تصيح من وجدها في الأسحار . كلما هدلت حمائم الشجون، هطلت غمائم العيون، فإذا كان حين ﴿ تتوفاهم الملائكة ﴾ ، فتح القفص عن روح تطلب الروح ، فتتحير لفزعة من راق فيهتف به هاتف الوداد ﴿ إرجعي إلى ربِّك ﴾[2] . فتنسى مرارة الكاس بحلاوة الخطاب فتهون شدائد الموت.

إن كان سرّكم ما قال حاسدنا فما بجرح إذا أرضاكم ألـــمُ

يا بعيداً عنهم أين أنت منهم ، لا تحسبن الأمر سهلاً نيل سهيل أسهل أتصقل سيفاً ليس سلحه جوهرية ، أتحمل صعباً مسناً على الرياضة ، وهل ينهض الباري بغير جناح، من لم يهز بيسير الاشارة لم تنفعه كثير العبارة. ترى في نيل مواعظي مقرطس بلى ربما وقعت نبلة في قلب حزين ، ولم يدر الرامي .

سهمٌ أصابَ وراميه بذي سلم ، سر في السر على أقدام العزيمة ، وليكن همُّك الظفر لا الغنيمة ، فالعز لا يناله جبان .

وإن أكتبَ الأقلام الأسنّة ، انتبه من رقاد الغفلة ، فقد طلع ضوء

(١) سورة البقرة ، الآية : ٢٠ .
(٢) سورة الفجر ، الآية : ٢٨ .

الشيب ، وأسْرع في سير الجِدِّ فقد رحلت الرفقة ، وصوِّتْ في الأسحار لعلها ترحمك الساقة ، وتلمّح آثار السالكين ، لعلك تقع على الجادّة ، فإذا لحقت أعراض الركب فقِف نفسك على خدمة الإبل ، فربما دخلت خيمة من أحببت فقلت : دعوني وأتباعي ركابكم ، أكن طوع أيديكم كما يفعل العبد ، وما بال زعمي لا يهون عليهم ، وقد علموا أنْ ليس لي منهم بدٌّ .

تم الكتاب بحمد الملك الوهاب نهار الاثنين شهر رجب الفرد ، سنة سادس وعشرين ومائتين وألف بقلم العبد الفقير المعترف بالذنب والتقصير الراجي رحمة مولاه اللطيف الخبير ، عفا عنه مولاه . آمين ...

نقلاً من كتاب الحريفيش .

وقال أحمد بن منصور — رحمه الله — : قال لي أستاذي أبو يعقوب السوسي : غسلت مريداً فأمسك إبهامي وهو على المغتسل ، فقلت : يا بني ! خلِّ يدي أنا فخلّى يدي .

وقال الشبلي — رحمه الله — : عقت وقتاً مع الله ألا أكل إلا من الحلال فكنت أدور في البراري ، فرأيت شجرة تين ، فمددت يدي إليها لآكل منها فنادتني الشجرة : احفظ عليك عقدك لا تأكل مني فإني ليهودي .

عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « بينما رجلٌ يسوق بقرة قد حمّل عليها ، التفتت إليه وقالت : أنا لم أخلق لهذا ، إنما خلقت للحرث » .

حكي أن علياً بن بكار وأبو إسحاق القراري كانا من الأولياء الصالحين ، وكانا يحطبان ويأكلان من كسبهما ، فاتفقا على أن يصعدا إلى الجبل من الغداة فيحطبان ويساعدا بعضهما بعضاً ، فسبق عليّ بن بكار إلى الجبل ، فاحتطب حزمته وأبطأ عليه رفيقه فجعل يطوف عليه الجبل فرآه وهو جالس مربع وفي حجره رأس أسد ، وهو ينش الذباب عنه فقال له : يا أبا إسحاق ! ما هذا ؟ فقال : إنه إالتجأ إليّ فرحمته

وأنا أنتظره لينته وألحقك فتركه علي بن بكار ومضى ، فرأى صخرة عليها كيس فيه ألف دينار ، وقد علاه الغبار والتراب ، فقال في نفسه : آخذه وأتصدق به ، فنزل من الجبل ، فمرّ بعبد أسود وهو مطروح على وجهه وهو مكسور الرجل وعند رأسه حزمة حطب . كان يروم بيعها ، فقال : ما أجد لصرف هذا الذهب موضعاً أحق من هذا العبد ، فأخرج من الكيس عشرة دنانير وأتى اليه ، وقال له : خذ هذه وأستعن بها على حالك ، فرفـع رأسه إليه وقال له : ضع هذا الذهب مكانه ولا تتصدق بغير كسبك ، فأنا والله لي سنة أمرُّ كل يوم على هذا الكيس وهو ملقى على الصخرة ولم أعلم ما فيه ، فكيف رغبت أنت في الدنيا وأخذت ما لا يحل لك أخذه .

قال أبو علي : فخجلت من كلامه وعلمت أنه من الأولياء ، ثم رددت الكيس إلى مكانه ورجعت إلى العبد ، فلم أره فسألت عنه فقيل لي: إنه يأتي في كل أسبوع مرة بحزمة حطب فيبيعها بدرهم فيتقوت به باقي الأسبوع ولا يأخذ من أحد شيئاً ، هذه والله أحوال الزاهدين وهذه صفات الصالحين .

قيل : وكان أبو يزيد البسطامي رحمه الله يقول في مناجاته : إلهي لست أعجب من حبي لك وأنا عبد حقير ، وإنما أعجب من حبك لي وأنت ملك قدير .

قيل : وكان يحيى بن معاذ الرازي يقول في مناجاته : ليس العجب من عبد ذليل يحب رباً جليل ، وإنما العجب من رب جليل يحب عبداً ذليل .

الفهرس

الموضوع	الصفحة
الفصل الثامن عشر : في وصف الملائكة والشياطين والبشر ...	٣١
الفصل التاسع عشر : في العزيمة	٣٣
الفصل العشرون : في العمل قبل دنوّ الأجل	٣٤
الفصل الحادي والعشرون : الحياة عمل وجهاد	٣٥
الفصل الثاني والعشرون : في التوبة الصادقة	٣٧
الفصل الثالث والعشرون : الدنيا تغرُّ الانسان الساذج	٣٨
الفصل الرابع والعشرون : في شماتة الأعداء وعداوة الشيطان ...	٤٠
الفصل الخامس والعشرون : الزهد في الدنيا طريق إلى الجنة	٤١
الفصل السادس والعشرون : في العلم والعمل	٤٣
الفصل السابع والعشرون : في الدنيا	٤٤
الفصل الثامن والعشرون : في أقوال الصحابة رضي الله عنهم ...	٤٦
الفصل التاسع والعشرون : قدرة الله سبحانه وتعالى تتجلى في صنع الكون	٤٧
الفصل الثلاثون : في أن الله سبحانه وتعالى لطيف بعباده	٤٨
الفصل الحادي والثلاثون : في الأعمال الصالحة	٥٠
الفصل الثاني والثلاثون : في القدر	٥١
الفصل الثالث والثلاثون : الدنيا نهر طالوت	٥٢
الفصل الرابع والثلاثون : في الطبع	٥٤
الفصل الخامس والثلاثون : في البقاء والفناء	٥٥
الفصل السادس والثلاثون : في معنى الباطن والظاهر	٥٦
الفصل السابع والثلاثون : في مجلس الذكر	٥٧
الفصل الثامن والثلاثون : في صورة التعبُّد	٥٩
الفصل التاسع والثلاثون : الابتلاء بحب الدنيا	٦٠
الفصل الأربعون : الانشغال بعمل الدنيا	٦٢
الفصل الحادي والأربعون : في الحساب بعد الموت	٦٣

الموضوع	الصفحة